

مشاہد و تصور

الزلزلة

صور ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم عن يوم القيامة، منها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّارُ أَنْفُورًا كُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَكُونُهَا تَزْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ (الحج).

هذا تصوير دقيق للحالة التي سيكون عليها الناس؛ كل الناس، يوم البعث وقبل الحساب، عقولهم من هول الموقف ستكون ذاهلة؛ فالأم التي هي في الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها، تابعه أينما كان، وتلحظه أينما وجد، وبخاصة إذا كان رضيعاً صغيراً، هذه الأم ستذهل عن ابنها، يكون أمامها فلا تراه، ويناديهما فلا تجيبه، ويقترّب منها فلا تحس به، ذهول تام من هول الموقف العظيم!

فالناس في يوم الحساب، كل واحد منهم مشغول بنفسه، يفكر في ذاته، ولا يدور بخلده أي شيء آخر، إنه يريد أن ينجو بنفسه من هذا الهول العظيم، يريد أن يطمئن إلى مصيره، بعد أن أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه يراها بعينه، ويتابع أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيباً عنه.

في هذه اللحظة التي يفيق فيها الإنسان ويعرف أنه محشور في ساعته للعرض على ملك الملوك؛ يذهب عقله ولا يفكر إلا في نفسه، إنه يوم وصفه الله سبحانه وتعالى في الكتاب الكريم: ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل: ١٧).

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، أي: أن المرأة التي تعتر في الحياة الدنيا بجنينها، تتخلص منه، فهي لا يشغلها إلا نفسها، وعندما يساق الناس إلى أرض المعاد لا يمشون بخطى ثابتة، لا يكونون ثابتين في مشيهم وفي تقدمهم، بل إن الرعب الذي يحتاج القلوب يجعلهم يترنحون يميناً

ويساراً كالسكارى، حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا أوزانهم كأنهم سكارى، ولكنهم في الحقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر، ولكن هول الموقف الذي هم فيه، وشدة عذاب الله الذي يخشون أن يصيبهم يجعلهم كالسكارى فلا يستطيعون أن يحفظوا أوزانهم، ويترنحون في عشيته.



فرار المرء من أقرب الناس إليه

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ (٣٥) وَأَبِيهِ (٣٦) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٧) كُلٌّ آمِرٌ فِي النَّارِ ثُمَّ إِذَا لَفُفُّوا فِيهَا (٣٨)﴾ [عبس].

نفهم من قول الحق سبحانه وتعالى أنه سيكون هناك نداء بين الناس في هذا الموقف، فهذا ينادي هذا بحكم قرابة الدنيا وبحكم الصلات التي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت، ولكن الأنساب ساعشذ تختفي، فلا يصبح أحداً ملتفتاً إلى تحية أو سلام أو لقاء من أحد، رغم أنهم قد افترقوا لفترة طويلة، كل واحد منهم يقول نفسي نفسي^(١)، فإذا ناداه أو حاول أن يحتمي به مثلاً أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه بل يفر منه، فإذا ظن الابن مثلاً أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح في هذا اليوم، فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه، ولن تشفع القرابة بين الاثنين، إلا أن يشاء الله. ولها ضوابط ومقاييس حددها الله سبحانه وتعالى، وأذن بها، لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع على إطلاقها في الحياة الدنيا، فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة، ويقفوا معه في ساعات العسرة، فهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك، ولكن في هذا اليوم العصيب، كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين، يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب، لا يريد أن يتعلق به أحد، ولا أن يحمل من أوزار أحد، بل يبتعد قدر الإمكان عن الناس؛ كل الناس، طالباً لنفسه السلامة من العذاب، ويقول: نفسي نفسي.



(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخاري [٣٣٤٠] ومسلم [٣٢٧/١٩٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

أصدقاء الأمس . . أعداء اليوم!

يساق الناس إلى أرض المعاد، وهم يترنحون من هول الموقف، مشيتهم غير متزنة، وخطواتهم غير ثابتة، وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء، ينادونه فلا يرد عليهم، ويستنجدون به فلا ينجدهم، يظنون أن قرابته لهم أو صداقته بهم في الدنيا ستشفع لهم في ذلك اليوم، ولكن هيهات . . إنه لا يلتفت إليهم طلباً للنجاة بنفسه، وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا، أو تجمعوا على معصية الله، يفرون من بعضهم البعض فهم يومئذ أعداء الداء، صداقتهم في الدنيا قد تلاشت تماماً، ولم لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار؟ كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين، لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض في ذلك اليوم؟ لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير، فإذا رأى واحد منهم زميله يمشي في طريق الخير أعانه، وإذا رآه يمشي في طريق الشر يقف في طريقه، وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير .

لقد كان المتقون يتعاونون على البر، فوقوا أنفسهم عذاب النار، كل واحد منهم نصح الآخر، أي: أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، فنفعهم ذلك في هذا اليوم العظيم، ونجاهم الله، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الْأَخْدَانُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).



نور المؤمنين يوم القيامة

إن للمؤمنين نوراً يمشون به في وسط ظلمات هذا اليوم العظيم، والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم، أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم، أو يكونوا لهم عوناً، ولكن هذا كله لا يفيد، لقد تقطعت الأسباب، وأصبح كل إنسان مشغولاً بنفسه.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَنِعْمَ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ كَتَبْنَاهُمْ ذَلِكَ نَجْزِي مَنْ تَحِبَّ الْأَنْتَرُ حَلِيمٌ فِيهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا تَفْقَهُوا مِنْ نُورِكُمْ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ سُبُورًا لَمْ يَأْتِ بَاطِنُهُمْ فِي الرَّحْمَةِ وَظَهَرُ مِنْ بَيْنِ الْأَذْذَابِ ﴿١٣﴾﴾ (الحديد).

حيثئذ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذي يحيط بهم، والرحمة التي تحيط بالمؤمنين، ينادي الكفار والمنافقون المؤمنين: ألم تكن معكم في الحياة الدنيا، ألم نعش معاً حياة واحدة^(١)؟

(١) يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الحديد: ١٢) قال: على قدر أعمالهم يعرفون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتقدم مرة، ويطلق مرة.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبيين وصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه».

وقال سفيان الثوري عن حصين عن مجاهد عن جنادة بن أبي أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيمائكم وحلائكم ونجوائكم ومجالسكم فإذا كان يوم القيامة قيل: يا فلان هذا نورك، يا فلان لا نور لك، وقرأ: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقال الضحاك: ليس أحد لا يعطي نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طغى نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طغى نور المنافقين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نَارَ نُورِكَ﴾ (التحریم: ١٨). وقال الحسن: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني على الصراط. وقد قال ابن أبي حاتم رحمه الله =

فيرد عليهم المؤمنون: نعم لقد عشنا حياة واحدة، ولكنكم أيها الكافرون

= تعالى: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب أخبرنا عمي عن يزيد بن أبي حبيب عن شعيب بن مسعود أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يحدث، أنه سمع أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم». فقال له رجل يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك؟ فقال: «أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يتوتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسميائهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»^(١). وقوله: ﴿وَرَأَيْتُ﴾ قال الضحاك أي: وبأيمانهم كتبهم، كما قال: ﴿فَمَنْ أَوَّلَ كِتَابَةٍ يُمْنِي﴾ [الأنبياء: ١٧١].

وقوله: ﴿تَنَزَّلُكَ أَيْمٌ خَلَّتْ قَرَىٰ مِنْ قَلْبِ الْأَنْهَارِ﴾ [الحديد: ١٢]، أي: يقال لهم بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار. ﴿حَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكنين فيها أبداً ﴿وَالَّذِي هُوَ الْقَدْرُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله: ﴿يَرَىٰ بِقَوْلِ الشَّقِيقِينَ وَالْمُفْلِقِينَ لِقَائِهِمْ أَمَّا أَطْرُفَا نَفْسَيْنِ مِنْ قُرُونٍ﴾، وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور القطعية وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ﷺ وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر.

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأسيتم في منزل تفتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فيبيض وجوه، وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطي المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَعْرٍ أَلْبِنٍ يَغْشَىٰ مَوْجَ بَيْنَ مَوْجٍ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِ، سَحَابٌ مَلَكُوتٌ يَعْصِي فَوْقَ بَعْضٍ إِلَّا تَخْرُجُ يَسَافِرُ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ نَزَّاهُ قَالَهُ مِنْ لُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن. كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير. ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿تَطْرُقُوا نَفْسَيْنِ مِنْ لُورَةٍ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَهُ ثُمَّ قَالُوا لُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم ﴿يُسَوِّرُهُ بَابٌ يَخْلُقُ فِيهِ الرَّاحَةَ وَتَطْرُقُ مِنْ وَكْبِهِ الْمَنَابُ﴾ الآية.

(١) رواه الحاكم في المستدرک [٤٧٨/٢] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي، وبنحوه أحمد في المسند [١٩٩/٥].

والمنافقون ضيعتم أنفسكم بما استمتعتم به في الدنيا من نعم زائفة، وكنتم

= إلا أنه يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغتوراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المنافق والمؤمن، ثم قال: حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا ابن حبة، حدثنا أرطاة بن المنذر، حدثنا يوسف بن الحجاج عن أبي أمامة قال: يبعث الله ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿**أَطْرُوبًا نَقِيسَ مِنْ قَوْمِكُمْ**﴾.

وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجّهوا نحوه وكان النور ذليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ: ﴿**أَطْرُوبًا نَقِيسَ مِنْ قَوْمِكُمْ**﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿**أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ**﴾ من حيث جتم من الظلمة فالتسوا هنالك النور.

وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا الحسن بن عرفة بن علوية القطان^(١) حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر بن حذيفة حدثنا ابن جريج عن ابن مليكة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمانهم سترأ منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استروا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿**أَطْرُوبًا نَقِيسَ مِنْ قَوْمِكُمْ**﴾ وقال المؤمنون: ﴿**رَبِّكَ أَتَيْمٌ قَاتُورٌ**﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿**صُورَتُهُمْ بِشُورِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُمْ مِنْ فِيهِ الْعَذَابُ**﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو الذي قال الله تعالى: ﴿**وَنَبِّئْنَا جِبَّتَ**﴾.

وهكذا روى عن مجاهد رحمه الله وغير واحد وهو الصحيح.

﴿**بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ**﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿**وَظُهُرُهُ مِنْ فِيهِ الْعَذَابُ**﴾ أي: النار. قاله قتادة وابن زيد وغيرهما.

قال ابن جرير وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم.

ثم قال: حدثنا ابن البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة عن سعيد بن عطية بن قيس عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: إن السور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿**صُورَتُهُمْ بِشُورِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُمْ مِنْ فِيهِ الْعَذَابُ**﴾ هو السور الشرقي باطنه المسجد وما يليه، وظاهره وادي جهنم.

ثم روى عن عبادة بن الصامت، وكعب الأحبار، وعلي بن الحسين، وزين العابدين نحو ذلك، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى، ومثلاً لذلك. لا أن هذا هو الذي أريد منه القرآن هذا الجدار المعين ونفس المنجد وما وراءه من الوادي المعروف =

(١) في ابن كثير المطبوعة «العطار» والتصريب من المعجم الكبير.

(٢) رواه الطبراني في الكبير [١١/١٢٢/١١٢٤٢].

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة، فلكل واحد منهم درجة من الدرجات، الله سبحانه وتعالى يعرض لنا عدداً من هذه المواقف في القرآن الكريم، ليرينا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة، فليس المؤمنون في درجة واحدة، وكذلك الكافرون ليسوا على درجة واحدة، ولكن لكل درجة، ولكل حال، هناك الذين كذبوا على الله، وهناك الذين أشركوا بالله، وهناك الذين عبدوا غير الله، وهناك الذين أضلوا الناس. إذن.. صور عديدة ومتعددة.

فهذا يريد أن يقر^(١)، وهذا يتمنى أن يكون تراباً^(٢)، وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحاً ولو عاد لأفسد^(٣)، والناس حين يساقون إلى أرض الميعاد يكونون في هياث وأحوال متعددة فهم في أول يوم الحشر في حال، وفي آخره في حال، كل واحد من الناس له حالة تناسب عمله في الدنيا، وقد أخبرنا ربنا سبحانه في كتابه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم شيئاً من تلك الصور في ذلك اليوم وأحوال الناس فيه، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. ولكن هل البياض أو السواد يتعلق باللون، أم يتعلق بالحالة؟

في كثير من الأحيان ترى إنساناً إذا أصابه هم، وبلغ حالة اليأس يقول لك: لقد اسودت الدنيا في وجهي، هل الدنيا اسودت حقاً وأصبح لونها أسوداً بالطبع لا.. إن الدنيا كما هي، ولكن ما يعتري هذا الإنسان من الهم جعل الدنيا سوداء في نظره، وأصبح لا يرى شعاع النور والأمل.

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ مِنْ أَمْنٍ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وأيضاً: ﴿وَتَسْوَدُّ الْوُجُوهُ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].
(٢) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ هَذَا قُرَيْبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْقُرْآنُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ الْيَتِيمُ كُنتُ قُرَيْبًا﴾ [الأنبياء: ٤٠].

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَلْمِزْنَاكَ نَعْمَلْ سَلِيمًا خَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَقَالُوا إِنَّكُم مُّذُنَّبُونَ أَنْ تَبْلُغُوا رَبَّنَا بِتِلْكَ الْأَعْيَانِ الَّتِي نَكْتُمُهَا وَنَكْنُزُهَا فِي السُّبُحِ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وكم من إنسان لون بشرته سمراء، ولكنك ترى وجهه مشرقاً بالإيمان، متلألئاً بالنور، تستبشر به وتقول: إن وجهه مشرق.

إذن.. فاللون هنا ليس هو المحل، ولا يستطيع إنسان أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى قد مدح الوجوه البيضاء في الدنيا، وذم الوجوه السوداء، وشبه بهم الكافرين.. إن عدل الله بأبى هذا، فلا فرق بين عباد الله جميعاً إلا بالتقوى^(١)، بل إن أهل جهنم قد يكونون من أصحاب الوجوه البيضاء في الدنيا ولكن أعمالهم مجللة بالسواد.

إذن.. فالسواد هنا معناه: أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بغض النظر عن لونها، فإنك ترى سحب السواد تكسوها، تراها وقد غاب عنها الإشراق فتبدو ذميمة كالحة، تحس أن كل ما حولها أسود، فعملها أسود، وحسابها أسود، ومصيرها أسود، ولا أمل لها ولا فيها.

إذن.. موكب الحشر يمضي، وهم يومئذ على صور مختلفة، إنهم يمشون جماعات، المؤمنون جماعات، والكافرون جماعات، وكل جماعة في شأن، جماعة من أصحاب الوجوه السوداء يقول قائلهم: ﴿يَلْبِسُنِي مِنَ الْكُفَّاءِ﴾ (الفجر: ٢٤). فقد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا من جرم في حق أنفسهم بمعصيتهم لله تعالى.

وجماعة أخرى كذبوا على الله فاسودت وجوههم بعملهم هذا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر: ٦٠).

وأخرى قال الله تعالى فيهم: ﴿كَانُوا أَغْنَيْنَا وَجُوهَهُمْ قَطَعْنَا مِنَ الْإِثْلِ﴾ (يونس: ٢٧). وآخرون يتمنون أن تسوي بهم الأرض: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ (النساء: ٤٢).

هناك صور عديدة في القرآن الكريم تبين أحوال الخلق جميعاً يوم القيامة، خلق يحملون أوزارهم، وآخرون يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم، أي: أنهم لا يحملون فقط خطاياهم، بل يحملون أيضاً من خطايا آخرين ظلموهم، فاقتص الله تعالى منهم بأن أخذ من حسناتهم للمظلومين، فلما نفذت الحسنات، أخذ من سيئات المظلومين وحملها على الظالمين^(٢).

(١) إشارة لقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَصْحَرَمْتُكَ بَعْدَ الْفِتْنَةِ﴾ (الحجرات: ١١٣).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه [٢٥٨١/٥٩]، والترمذي [٢٤١٨]، وأحمد في المسند [٢/٢] =

وإذا كان ذلك كذلك؛ فالمؤمن الصالح لا يتأثر بعمل قريبه العاصي أو الكافر، لأن الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المائدة: ٣٨)، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (افطر: ١٦٨). أي: أن كل واحد يحمل ذنبه فقط الذي اقترعه، ولا يحمل إنسان ذنب إنسان آخر، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا أمثلة في القرآن الكريم توضح ذلك، ففرعون مثلاً كان من أشد العصاة لله، نصب نفسه إلهاً في الأرض ليعبداه الناس، وجاءه نبي الله موسى عليه السلام بآيات كثيرة، فرفض أن يؤمن، واستمر في ضلاله وفي ادعائه الألوهية، فكان جزاءه أن الله سبحانه وتعالى وعده بأشد العذاب؛ قال الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذِلُّوْا مَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦).

وفرعون هذا، كانت له امرأة صالحة مؤمنة، كرمها الله تعالى وشرفها بأن ذكرها في القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمُ أَهْلَ مَثَلٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَنِّي لِي عِنْدَكَ بِتَّاءٌ فِي الْجَنَّةِ وَنَحْنِي بِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَحْنِي بِن الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحریم: ١١).

وهكذا نرى أن امرأة فرعون التي عاشت حياتها في بيت إمام الكفر والضلال؛ في قصر فرعون، أنها أخلصت لله سبحانه وتعالى، وطلبت منه سبحانه النجاة من فرعون وعمله، ومن القوم الظالمين المحيطين به، فكان جزاؤها في الآخرة الجنة، ولم يحملها الله من أوزار فرعون شيئاً.

وفي المقابل، امرأة نوح وهو نبي، وامرأة لوط وهو نبي، تأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَرْيَمُ أَهْلَ مَثَلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتُ نُوحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْهِ مِنْ عِبَادَتَا صُلَحِيَّتَيْنِ فَخَلَّاهُمَا الْمَلَأُ يَفْعِلَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (التحریم: ١٠).

هذه قصة امرأتين كانتا في بيتي نبوة ولكنهما كفرتا بالله، وناصرتا الكفار ضد دعوة الله تعالى، فكان مصيرهما النار، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتي نبيين، لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم وصدقوا بالرسالة وعملوا بها.

«[٣٧١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أندرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فيما من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من امتي يأتي يوم القيامة بضلعة، وصبيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسنة وهذا من حسنة، فإن فئت حسنة قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار.»

وكذلك ابن نبي الله نوح الذي رفض أن يؤمن وأصر على الكفر، فلم يغفر عنه أنه ابن رسول ونبي، وعندما أراد نبي الله نوح النجاة لابنه وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنبِيءُ مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥].

قال الله تعالى مُعَلِّماً ومُرْشِداً لنبيه ورسوله نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَىٰ عَرْشٍ مُّسَبِّحٍ﴾ [هود: ٤٥].

وكذلك الخليل إبراهيم أراد أن يستغفر لعمه آزر، فلما علم أنه عدو لله تعالى أنكره وتبرا منه، وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبرَهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِنْ شَاءَ ظَلَمًا لِّبَنِي آدَمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبرَهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].



المضطلون . . يحملون أوزارهم وأوزارهم مع أوزارهم

الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا أمثلة في القرآن الكريم تؤكد لنا: ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وأن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وأن ﴿وَلَا تُزِرُّ وَزِيرَةً وَذِرَ أَخْرَجَ﴾ [فاطر: ١٨].

وذلك يعني: أن الإنسان يحمل يوم القيامة ما ارتكب من وزر فقط، وأن كل إنسان يحاسب على عمله هو، وأن أي نفس لا تحمل إثماً أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى.

وإذا كان ذلك كذلك فكيف نفهم قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِهِمُ الَّذِينَ يُضْلِلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

نقول: إذا كان الوزر الذي يحمله هو من عمله، فالوزر الذي يحمله مع أوزاره هو من عمله أيضاً، فالإنسان حين يكون كافراً أو عاصياً، فإنه يحمل وزره يوم القيامة، فإذا كان مُضِلّاً، أي: لا يكتفي هو باقتراف المعاصي بل يزيئها لغيره، فيدفع الناس إلى شرب الخمر مثلاً، ويغريهم بالزنا، ويزين لهم أكل الربا، وشهادة الزور، وقتل النفس، فإنه في هذه الحالة يحمل من أوزار هؤلاء الناس الذين أضلهم وزين لهم المعاصي فوق وزره.

فكل إنسان أغراه ذلك المضل بشرب الخمر، كلما تناول كأساً من الخمر فعلى الذي زين له ذلك إثم، ولا ينقص من إثم الشارب شيء، وكل إنسان شجع امرأة أو رجلاً على الزنا، كلما زنا هذا الرجل أو هذه المرأة كان عليه إثم، ولا ينقص من إثمها شيء.

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن استن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

(١) أخرجه مسلم [١٠١٧/٧٠] من حديث جرير رضي الله تعالى عنه.

على أن السؤال هنا هو الصورة التي سيتم عليها ذلك، هل سيحمل الإنسان فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بمال حرام؟ وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا؟ أم أن الناس يحملون كتاباً فيه أعمالهم، وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلاً يتعشرون به، لا يستطيعون المشي، وأحياناً يضطرون أن يزحفوا على بطونهم، أو على ركبهم من ثقل ما يحملون.

الصورة هنا غيب لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم، ثقل يجعل هذه الظهور تنن مما تحمل، تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة، ويبدل جهداً كبيراً في أن يخطو خطوة واحدة.

يتلقت يميناً ويساراً يبحث عن من يساعده في هذا الحمل الثقيل فلا يجد أحداً، الكل يهرب منه. واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنَّ الْأُخْرَىٰ وَلَدَّةُ غُفْلَةٍ ۖ وَإِنَّ حَمْلَهَا لَا يَحْمِلُهُ سُوءٌ ۖ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (فاطر: ١٨).

ذلك أن أول ما تحاول أن تستجد به، وأول من يلجأ إليه الإنسان في وقت الشدة هم أقاربه، فتحاول هذه النفس في هذا اليوم العصيب أن تستجد بأولادها وإخوتها، بل كل الأقارب ولكنهم جميعاً يهربون، ولا يحمل أحد من هذا الحمل شيئاً.



البراءة من الشرك

يجمع الله تعالى يوم القيامة الذين اتخذوا من دونه أنداداً، وذلك المتخذ ندأ. ويواجههم حتى تكون الفضيحة على رؤوس الأشهاد، بين عابد عبد باطلاً، وبين معبود غير مستحق للعبادة، وهذا الغير مستحق للعبادة نوعان: نوع لم يطلب من أحد أن يعبد كالملائكة والرسل والصالحين، أو كالشمس والقمر والبقر والنار والأصنام.

والنوع الثاني: الذي تأله على الله، وعبد الخلق له ظلماً وبغياً بغير الحق، كفرعون وأمثاله من الطغاة والظالمين.

وهذا الحوار الذي سيتم، وهذه المواجهة ستكون على رؤوس الأشهاد جميعاً. وقد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن لهذا الجمع الغفير أن يشهد ويسمع ويرى هذا الحوار؟ نقول لهؤلاء جميعاً: لو فكرتم قليلاً لما أصابكم الدهشة! ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم في العالم؛ تنقله الأقمار الصناعية، ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه في جميع بقاع الأرض في آن واحد؟

وإذا كانت هناك مثلاً مباراة لكرة القدم، ألا نستطيع أن نشهدها هنا في مصر في عشرات الألوف من المنازل في وقت واحد، ونسمع ما يدور هناك؟ فإذا أحصينا ذلك في العالم أجمع، نجد أن هناك ملايين المشاهدين في ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث في نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة، إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر، فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى. ألا يستطيع الله عز وجل بقدرته أن يجعل خلقه كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه وهم في أماكنهم؟ إن ذلك على الله يسير؛ وهو على كل شيء قدير.

إذن... هذا الحوار سيكون علنياً يشهده أهل المحشر كلهم، يرون ويسمعون ما يدور، سيرون ما يحدث، وكيف سيكون الحساب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ نَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ (عمر: ١٠٣).

١

براءة الملائكة

ومن هؤلاء الذين عبدوا بغير حق ولا علم لهم بعبادة الناس إياهم؛ الملائكة. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَآدَمُ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ (سبا).

وهكذا برأت الملائكة أنفسهم من هذا الاتهام، ونزهوا الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود غيره، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي: تباركت وتعاليت وتنزهت من أن يُعبد غيرك في هذا الكون، ثم تقول الملائكة: أنت يا ربي إلهاً ونحن في طاعتك لا نجرؤ على المعصية ولا نقدر عليها، ولم نُقلْ لهؤلاء الكفار اعبدونا، بل لم نكن ندري شيئاً عن عبادتهم لنا، وكيف نفعل ذلك ونحن مخلوقون لعبادتك مفطورون على طاعتك.



ب

براءة الكواكب والعجماء

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والنجوم والجبال والحجارة، وكل ما عُبد من دون الله، ويسألهم، هل أنتم قلتم لهؤلاء اعبدونا من دون الله؟ وهنا يرد الجميع، كل بدوره، وكل شيء يوم القيامة سيتكلم لأن الله سينطق كل شيء، سينطق الحجارة والشمس والماء، وكل ما في الكون، فيقول هؤلاء جميعاً كل بدوره، يا رب نحن لم نقل لهم شيئاً، نحن أعبدك لك منهم ونحن نسبحك ليل نهار، ونحن مفطورون على طاعتك، سلهم يا رب أي رسول أرسلناه إليهم ليلغهم عن ألوهيتنا، أو أي منهج بلغناهم ليطبقوه في عبادتنا؟!

بالطبع لا شيء... فلا الشمس أرسلت رسولا إلى الناس تقول لهم اعبدوني، ولا القمر أعد منهجاً لعبادته، ولا الأحجار ادعت أنها آلهة لا بد أن يسجد لها، بل كل هذه المخلوقات عابدة مسبحة لله تعالى، تلعن الإنسان الكافر وتتمنى أن تفتك به، وتتم هذه المواجهة كما قلنا أمام خلق الله جميعاً، وخصوصاً أولئك الذين عبدوا هذه الأشياء حتى يكونوا شهداء على أنفسهم بشهادة الآلهة بزعمهم التي عبدوها من دون الله تعالى، ليس هذا فقط بل إن الذين اتبعوا سواء بعلم أو بغير علم، سيثبرأون من الذين اتبعوهم، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ نَسُوا اللَّهَ الَّذِي تَبِعُوا مِنَ الذِّكْرِ أَتَعْتَابُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات الذين عبدوا من دون الله تعالى، لتعلن أمام الله سبحانه وتعالى أنها لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة، وأنهم لم يدعوا أحداً لاتخاذهم آلهة، ولذلك عندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الأحجار التي اتخذوا منها أصناماً، تقول الأحجار عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين في الأسفار، ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد الله؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

بعض الناس يتساءل: هل ستحدث الأحجار يوم القيامة؟ وهل ستنطق؟ نقول لهم: إن كل شيء سينطق يوم القيامة، فأعضاء الإنسان ستشهد عليه،

والأرض التي يمشي عليها ستشهد عليه وتحدث بما فعل على ظهرها^(١)، نسألوننا كيف سننطق؟ وبأي لغة ستتكلّم؟ نقول: إنها ستتكلّم بلغة تفهمونها جميعاً، فإذا كان الإنسان سيفهم لغة العين والسمع والجلد، ويعتب على أعضاء جسمه فيقول لها: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾

ومعنى ذلك: أنهم فهموا كلامهم، وإلا لما قالوا: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟﴾. فترد الجلود والأسماع والأبصار: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

إذن.. هناك حوار سيدور بين الإنسان وسمعته وبصره وجلده وكل جوارحه بلغة يفهمها الإنسان، وتفهمها هذه الأعضاء كلها، وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة.

فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، ورجل عربي لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية؛ هل يمكن أن يدور بينهما حوار؟ بالطبع لا، ولكن لا بد أن تكون هناك لغة مشتركة، وسيعلمنا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض، ولغة كل مخلوقاتنا التي نراها والتي لا نراها. حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى، فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا، ونحن سنرى إبليس وذريته، ويدور بينه وبين الكافرين حوار، وكل شيء سيتكلم وينطق، كل شيء كان صامتاً في الدنيا سيتكلم، وسينطق، وسيشهد،

(١) روى الترمذي [٢٤٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَ تَحْدُثُ أَسْرَارًا﴾ (الزلزلة: ٥)، قال: أتدرون ما أخبرها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإن أخبرها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا وكذا. فهذه أخبار.

وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب^(١).

قال القرطبي: فتفكر يا أخي وإن كنت شاهداً عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك وأعظم الشهود لديك المطلق عليك الذي لا تخفى عليه خافية عين، ولا يغيب عنه زمان ولا أين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ﴾ (نبي: ٦١). فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه، وقادم عليه، بجازي على الصغير والكبير والقليل والكثير. سبحانه لا إله إلا هو.

التذكرة [٣٢٩/١].

(١) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٤٢٨].

حتى الأشياء التي سخرها الله لإرادة الإنسان، وجعلها خاضعة لهذه الإرادة في الدنيا كاللسان مثلاً الذي جعله الله صالحاً لأن يقول كلمة الإيمان، وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله، فإذا أمر الإنسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها، ولكن هذا اللسان في ذاته عابد وطائع ومطيع، ولذلك يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه بأنه أجبره على نطق كلمة الكفر لأنه مسخر لإرادة الإنسان.

ولكن عندما تخمد الإرادة البشرية بالموت، يشهد كل شيء على الإنسان، ولا يملك الإنسان أن يقهر عضواً من أعضائه على أن يفعل ما يغضب الله، بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه، ولذلك فإن الحجارة التي هي أعبد لله من كثير من البشر، ستشهد على من عبدها يوم القيامة وتتبرأ منهم، وكذلك الشمس والقمر والنجوم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].



ج

براءة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه

فإذا انتقلنا إلى البشر، وعلى فمهم الرسل يسأل الله سبحانه وتعالى عيسى ابن مريم عليهما السلام: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ مَا مَسَّحُوكُمْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(١) [المائدة: ١١٦].

وهكذا يتبرأ الرسل عليهم السلام من الذين عبدوهم من دون الله، ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم في موقف حقير جداً، فهؤلاء الذين عبدوهم في الدنيا وقدموا لهم القرايين، وأتعبوا أنفسهم في إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة، هؤلاء الذين أمضى المشركون جل حياتهم يتقربون إليهم؛ يتبرأون منهم ذلك اليوم، وحينئذ يشعر هؤلاء المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم، ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض، أو كانوا تراباً بدلاً من أن يقفوا هذا الموقف المخزي أمام الله سبحانه وتعالى.



(١) انظر فصل: شهادة عيسى عليه السلام من هذا الكتاب.

في إغواء الإنسان، وفي إفساد منهج الله في الأرض، هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين، ولا بد أن نعرف أن الجن هم مقابل الإنس، ولهم اختيار، وأنه كما يوجد في الإنس طائع وعاص، كذلك يوجد في الجن، العاصون وهم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الإنسان بالكفر، مثلهم كمثّل طبقة من الإنس أغواهم الشياطين، فأصبحوا في خدمتهم، يفسدون منهج الله، هؤلاء هم شياطين الإنس.

إذن.. فالحوار بين من ومن؟ أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئاً عن ذلك، أم يكون بين شياطين الإنس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج؟!



حشر الذين أشركوا وشركاؤهم

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

إذن . . قال كلام هنا: للذين أشركوا من الإنس والجن ﴿مَكَانَكُمْ﴾، وحين تسمع إنساناً يقول لك مكانك؟ يعني: لا تتحرك حتى ينتهي هذا الموقف ويحسم، وهي كلمة وعيد، وتهديد من الله سبحانه وتعالى، ومعناها لا تتحركوا فإن عليكم حساباً لا بد أن توفوه، وهذا الحساب ليس في صالحكم.

الذين أشركوا يحسبون أنهم ضاعوا في زحام الآخرة وأنهم أفلتوا من المواجهة، ومن الفضيحة أمام خلق الله، ولكن عندما يسمعون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ يتأكدون أنهم لن يفلتوا، وأنهم في قبضة الله تعالى، وليس هم فقط، بل هم وشركاؤهم. وذلك قول الله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾؛ أي: كل الذين اجتمعوا على باطل في الدنيا يجمعهم الله يوم القيامة، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يجمعهم في معسكر واحد، إنه سبحانه يجعل الذين قاموا بالغواية والإضلال في معسكر، والذين انقادوا لهذه الغواية في معسكر آخر، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]؛ أي: فرقنا بينهم، حتى يصبح هناك فريق يواجه فريقاً، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتْنَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].



حشر الذين ظلموا وأزواجهم

وفي مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة؛ يقول الحق سبحانه: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢].

أي: إن الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم، بل ستحشر معهم زوجاتهم، لماذا جعل الله الزوجات يحشرن مع أزواجهن الذين ظلموا، بل قدم الزوجات على ما كانوا يعبدونهم من دون الله؟

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون، ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات في الإغواء وفي التوجيه إلى الشر قبل الشيطان، وما كان يزيه من عبادة غير الله تعالى.

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا في هذا، إلى أن هناك في بعض الأحيان من النساء من هن أفسد لدين الرجل من الشياطين، فممن من ينتهزن فرصة حاجة الرجل إليهن، ويدفعونه إلى طريق الإثم والانحراف، ليفعل ما يردن، فإن كن في حاجة إلى المال، أغرينه ليسرق أو يرتشي. وإن كن يردن الحياة الناعمة، أغرينه بارتكاب المعاصي كلها حتى يهيئ لهن هذه الحياة. وإن كن يردن الانتقام من شخص ما، أغرينه بالشر والكذب والتزوير، وربما الجريمة، ليصلن إلى هدفهن من شهوة الانتقام، ولو بالزور والزيف، وبطبع الزوج المغلوب على أمره، وينحرف، ويفعل كل ما يطلب منه دون النظر إلى الحلال والحرام، رائده في ذلك طاعة زوجته وطلباً لمرضاها.

إذن.. الله سبحانه وتعالى يفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة، وعلى مشهد من خلقه جميعاً، وهم واقفون في المحشر ينظرون؛ فيصدر الأمر إلى ملائكته: ﴿لَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) من دون الله فَاَعْبُدُوهُمْ إِنْ صَرَفَ إِلَهُمْ (٢٣) وَفَقُودُهُمْ إِلَهُمْ مَنفُورُونَ (٢٤) [الصافات].

أي: أوقفوهم في مكان محدد حتى يكونوا معروفين ومميزين من دون الخلق جميعاً لنسألهم عما فعلوا، فكأنه في هذه الحالة يكون الزوج والزوجة

مسؤولين معاً عن الإثم الذي حدث، فالزوجة لها إثم بحيث ارتكبت معصية بالتحريض الذي قامت به، والإغواء على الإثم الذي ظلت تطارد به زوجها، وكأنها شيطان ملازم له تأمره بالمعصية، فإذا رفض جعلت حياته جحيماً حتى يذعن ويفعل ما تريد، والزوج هو الآخر مسؤول، لأنه كان عليه أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة التي تريد أن تدفعه إلى الهاوية، جرياً وراء ملذاتها وشهواتها، فلا هي تخشى الله وترضى بما قسمه لها، ولا ترحم زوجها، فهي تدفعه لارتكاب شتى أنواع المحرمات ليأتي لها بما تريده، وهذا أحد الأسباب في أن الله شرع الطلاق، ألا فليعلم الناس جميعاً أنه لا عذر لأحد في أن يطيع مخلوقاً في معصية الخالق^(١).

وهنا في هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج وزوجته، ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر، وحيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنَّا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

أي: أنكم كنتم حزباً واحداً، كنتم يداً واحدة، كان كل منكم يسرع إلى تلبية رغبة الآخر، والوقوف معه في الباطل، فما لكم اليوم لا تناصرون، بل تقفون لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ هَرَأَيْنَا تَشْتَسَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

لماذا استسلموا؟ مع أنهم كانوا في الدنيا يتعاونون على الإثم والعدوان، وقد كانوا لا يستسلمون لشيء، فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس، أو إلى أي طريق آخر.

(١) أخرج البخاري [٧٢٥٧] عن علي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً وقال: «ادخلوها» فأرادوا أن يدخلوها وقال: آخرون: إنما فرنا منها فذكروا للنبي ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزلوا فيها إلى يوم القيامة» وقال للآخرين: «لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف».

شهادة عيسى عليه السلام على قومه وأتباعه

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكُونُ لَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۚ وَأَمَّا إِلَهُكُمْ فَمِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝﴾ (المائدة: ١١٦).

هذا مثل لشهادة التبليغ من الرسل وبأنهم قاموا بالتبليغ بمنهج الله كما نزل من السماء، والله يعلم صدق رسوله في البلاغ، ولكن ليكون حساب من انحرفوا عن المنهج عدلاً، وليكون هؤلاء الذين انحرفوا بالمنهج، شهداء على أنفسهم، فلا يستطيعون أن ينكروا، ولا أن يدعوا أن هذا التحريف هو من فعل الرسل أو من بلاغهم.

ويأتي جواب عيسى عليه السلام مُنكراً على الذين قالوا هذا القول، وادعوا فيه ما ليس بحق وبدأ كلامه بأن نزه الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود سواه فقلوه: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزهت، وتقدس، وتعاليت، عن أن يكون هناك معبود غيرك. ثم يؤكد عيسى عليه السلام صدق بلاغه عن الله فيقول: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أي: أن أقول ما ليس لي بحق.

أي أن عيسى عليه السلام يقول: يا ربي خلقتني على الصدق؛ فكيف أتجاوز وأدعي حقاً ليس لي، ثم يلتزم عيسى من الله الشهادة فيقول: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، أي: أنك يا ربي تعلم كل ما نطقت به، فإذا كنت قلت مثل هذا الكلام فلا بد أنك علمته، وإن كنت أخفيتني في نفسي ولم أقله ولكنني اعتقدت به ولم أظهره لأحد فأنت يا ربي علمته أيضاً لأنك يا ربي: ﴿تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝﴾.

ثم يقول عيسى عليه السلام مقررّاً حقيقة دعوته: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ قِيلُوا اللَّهُ هُوَ رَبُّكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدٌ مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧).

وكذلك يُسأل كل الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عن أمهم^(١).

(١) قال القرطبي: أخرج ابن المبارك في رقائقه مراسلاً، أخبرني رشدين بن سعد، قال: أخبرني ابن أنعم المغافري عن حبان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله عباده يوم القيامة، كان أول من يُدعى إسماعيل عليه السلام، فيقول له ربُّه ما فعلت في عهدي، هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم قد بلغت جبريل. فيدعي جبريل عليه السلام فيقول: هل بلغت إسماعيل عهدي؟ فيقول: نعم يا رب قد بلغتني، فيخلى عن إسماعيل، ويقال لجبريل: هل بلغت عهدي؟ فيقول جبريل: نعم قد بلغت الرسل، فيدعي الرسل فيقول: هل بلغتكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم. فيخلى عن جبريل. ثم يقال للرسل: هل بلغتكم عهدي؟ فيقولون: قد بلغنا آمناً، فتدعي الأمم فيقال لهم هل بلغتكم الرسل عهدي؟ فمنهم المصدق، ومنهم المكذب. فتقول الرسل: إن لنا عليهم شهوداً يشهدون أن قد بلغنا، مع شهادتك. فيقول: من يشهد لكم؟ فيقولون محمد وأمه، فتدعي أمة محمد. فيقولون: تشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليه؟ فيقولون: نعم، رب شهدنا أن قد بلغوا فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم بدرتنا؟ فيقول لهم الربُّ: كيف تشهدون على من لم تدركوا؟ فيقولون: ربنا بعثت إلينا رسولاً، وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصك علينا، أنهم قد بلغوا، فشهدنا بما عهدت إلينا، فيقول الربُّ: صدقوا. فذلك قوله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، والوسط: العدل ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قال ابن أنعم: فبلغني أنه يشهد يومئذ أمة محمد ﷺ إلا من كان في قلبه حنة على أخيه.

وقال - أي القرطبي -: وذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة، أن هذا يكون بعد ما يحكم الله تعالى بين البهائم ويقتص للجناء من القرناء، ويُفصل بين الوحش والطيور يقول لهم: كونوا تراباً فتسوى بهم الأرض وحينئذ ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَفُوا الرَّسُولَ لَوْ قَسَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ النساء: ٤٢. ويشتمى الكافر فيقول: ﴿يَلْبَسُنِي كُتٌّ زُرًّا﴾ التبا: ٤٠ ثم يخرج النداء من قبل الله تعالى: أين اللوح المحفوظ؟ فيؤتى به له هرج عظيم. فيقول الله تعالى: أين ما سطرت فبك من تورا وزبور وإنجيل وفرقان؟ فيقول: يا رب نقله مني الروح الأمين. فيؤتى به يرعد وتصطك ركبته. فيقول الله تعالى: يا جبريل هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحيي، أصدق؟ قال: نعم يا رب قال: فما فعلت فيه؟ قال: أنهيت التوراة إلى موسى، وأنهيت الزبور إلى داود، وأنهيت الإنجيل إلى عيسى، وأنهيت الفرقان إلى محمد عليهم السلام، وأنهيت إلى كل رسول رسالته وإلى أهل الصحف صحائفهم.

فإذا بالنداء: يا قوم نوح، فيؤتى بهم زمرة واحدة، فيقال: هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة. فيقولون يا ربنا كذب، ما بلغنا من شيء، وينكرون الرسالة. فيقول الله يا نوح ألك بينة؟ فيقول: نعم يا رب بيّتي عليهم محمد وأمه. فيقولون: كيف ونحن أول^٢

= الأسم وهم آخر الأمم؟ فيؤتى بالنبي ﷺ فيقول : يا محمد هذا نوح يستشهد فيشهد له بشليخ الرسالة . فيقرأ ﷺ : ﴿ إِنَّ إِلَهَنَا لَوَاحِدٌ قَدِيمٌ ﴾ [نوح: ١١] إلى آخر السورة . فيقول الجليل جل جلاله : قد وجب عليكم الحق ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين . فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب .

ثم ينادي أين هود؟ فيفعل قوم هود كما فعل قوم نوح مع نوح فيستشهد عليهم بالنبي ﷺ وخيار أمته فيتلوا : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] فيؤمر بهم إلى النار مثل أمة نوح . ثم ينادي : يا صالح ، يا ثمود ، فيأتون فيستشهد صالح عندما ينكرون ، فيتلوا النبي ﷺ : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ ﴾ [الشعراء: ١٤١] إلى آخر القصة . فيفعل بهم مثلما فعل بغيرهم ، ولا يزال يخرج أمة بعد أمة ، وقد أخبر عنهم القرآن بياناً ، وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى : ﴿ وَفُرُوفَاتِهِ كَبِشَاطِيمٍ ﴾ [الفرقان: ٣٨] .

وفوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَزَّلْنَا مُطَرَّدًا فِي آثَانِهِ لَنَنْزِلَهُمْ نَارًا كَذِبًا ﴾ [المؤمنون: ١٤٤] . وقوله : ﴿ وَاللَّيْلُ مِنْ عَذَابِهِمْ لَا يَنفَعُهُمْ إِلَّا اللَّهُ نَارًا تَلَظَّى ﴾ [النار: ١٧] وفي ذلك تنبيه على أولئك القرون الطاغية ، كقوم تارخ وتارح ودوحاً وأسرأ ، وما أشبه ذلك ، حتى ينتهي النداء إلى أصحاب الزمر ، وقوم إبراهيم ، وفي كل ذلك لا يرفع لهم ميزان ولا يوضع لهم حساب وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون والترجمان يكلمهم لأن الرب تعالى من نظر إليه وكلمه لم يعذبه .

ثم ينادي بموسى بن عمران ، فيأتي وهو كأنه ورقة في ريح عاصف ، أصفر لونه ، واصططكت ركبته ، فيقول له : يا ابن عمران ، جبريل يزعم أنه بلغك الرسالة والتوراة فتشهد له بالبلاغ ، قال : نعم . قال : فارجع إلى منبرك ، واتل ما أوحى إليك من ربك ، فيركي المنبر ، ثم يقرأ ، فينصت له كل من في الموقف فيأتي بالتوراة غضة طرية على خشنها يوم أنزلت حتى تتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوماً .

ثم ينادي يا داود ، فيأتي وهو برعد ، وكأنه ورقة في ريح عاصف ، تصطك ركبته ، فيصفر لونه فيقول الله جل ثناؤه : يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور ، فتشهد له بالبلاغ فيقول : نعم يا رب . فيقال له : ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك . فيركي ثم يقرأ وهو أحسن الناس صوتاً . وفي الصحيح أنه صاحب المزامير .

ثم ينادي العنادي أين عيسى ابن مريم فيؤتى به على باب المرسلين فيقول : ﴿ مَا لَكَ قُلْتَ بِنَاسٍ أَتَدْعُونَ وَأَنْتَ أَتَاهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] . ثم يحمد تحميداً ما شاء الله تعالى ، ويشني عليه كثيراً ، ثم يعطف على نفسه بالدم والاحتقار ويقول : ﴿ سَخَّطَكَ مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أَقُولَ مَا أَقُولُ بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ قَوْلَهُ مَا فِي قُلُوبِ وَلَا أَهْلُ مَا فِي قُلُوبِ اللَّهِ آتَ عَالَمُ الْغُيُوبِ ﴾ ، فيضحك الله ، ويقول : ﴿ هَذَا يَوْمُ نَقَمِ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩] . يا عيسى ، ارجع إلى منبرك ، واتل الإنجيل الذي بلغك جبريل . فيقول نعم ، ثم يركي ويقرأ فتشخص إليه الرؤوس لحسن ترديده وترجيحه فإنه أحكم الناس به رواية فيأتي به غصاً طرياً حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا به قط ، ثم ينقسم فومه فرقتين : المجرمون مع المجرمين ، والمؤمنون مع المؤمنين .



ثم يخرج النداء: أين محمد فيؤتى به ﷺ فيقول: يا محمد، هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن. فيقول: نعم يا رب. فيقال له: ارجع إلى منبرك واقراء، فيتلو ﷻ القرآن، فيأتي به غصفاً طريفاً، له حلاوة، وعليه طلاوة، يستبشر به المتقون، وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة، والمجرمون وجوههم مغبرة مقشرة، فإذا تلا النبي ﷺ القرآن، توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط.

وقد قيل للأصمعي: تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله، قال: يا ابن أخي يوم أسمع من رسول الله ﷺ كأنني ما سمعته.

فلذا فرغت قراءة الكتب، خرج النداء من قبل مرادقات الجلال: ﴿وَأَشْرُوا إِلَهُكُمْ﴾ **الْمُحْمَدِيُّ** (إس: ٥٩) فيرتج الموقف، ويقوم فيه روح عظيم والملائكة قد امتزجت بالجن، والجن ببني آدم، والكل لجة واحدة.

ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث بعث النار. فيقول: كم يا رب؟ فيقال له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة، كما قال الصديق رضي الله تعالى عنه: نحن حفنات بحفنات الرب سبحانه وتعالى.

لهم الجنة ساعة امتشهادهم، بينما أجل باقي خلق الله إلى يوم القيامة.

هذه هي منزلة الشهداء عند الله سبحانه وتعالى، والنبيون منزلتهم أعلى من الشهداء، لأنهم مقدمون في الآية الكريمة: ﴿وَجَاءَ الثَّانِي وَالشَّهَادَةُ﴾، أي: أنهم يسبقون الشهداء، ولكن النبيين يحضرون يوم القيامة لا ليحاسبوا على أعمالهم، ولكن ليكون كل نبي شهيداً على أمته، وتكون الأمة شاهدة على أن الرسول قد بلغ الرسالة، وبذلك يحضر الشاهد والمشهود، وفي هذا يكون هناك تقرير للعاصيين، حتى لا يستطيعوا أن ينكروا أن الرسول قد بلغ، وحتى يكون هذا التقرير أمام خلق الله كلهم^(١).

إن الأنبياء معصومون، وليس هناك حساب لمن عصمهم الله من المخالفات والذنوب والمعاصي، وإنما شهادة على أن الرسول قد بلغ، وتقرير لأولئك الذين حرقوا بالمنهج أو خالفوه، ولذلك فإنك لو تأملت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكْفِي بِي أَمْرِي إِنَّ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟ [المائدة: ١١٦].

(١) قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَ الْفِتْرَةَ أَوَّلَ إِلَهِمُ وَلَمَّا تَنَزَّلَتْ الْفُرُوسُ﴾ [١] فَلَمَّا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ بِمَقْرُونًا كَمَا عَلَيْهِمْ (٢) ﴿الاعراف: ١٠٢﴾.

أخرج البخاري [٤٤٨٧]، والترمذي [٢٩٦١]، وابن حبان في صحيحه [٦٤٧٧]، وأبي يعلى [١١٧٣] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وروى ابن ماجه [٤٢٨٤]، وأحمد في المسند [٥٨/٣]، والنسائي في الكبرى [٦/٢٩٢/١١٠٧] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل. ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فتدعى أمة محمد ﷺ فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا ﷺ بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣٤٥٧]، والأرنؤوط في المسند [١١٥٥٩].

وتدبريت قول عيسى عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا إِلَهًا رَبِّي ﴾ [المائدة: ١١٧].

لأيقنت أن عيسى عليه السلام سيكون شاهداً يوم القيامة على أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويقر بأنهم خالفوا منهجه الذي أمرهم، به وهو عبادة الله تعالى وحده، وهكذا الأنبياء جميعاً، فكل نبي يكون شهيداً على أمته بالمنهج الذي بلغه، حتى لا يستطيع أحد أن يجادل ويقول: إن الرسول قد قال هذا: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الْإِنْسُ كُفْرًا وَعَصَا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢].

وهكذا يجعل الله سبحانه وتعالى العصاة والكافرين يشهدون على أنفسهم بأنهم كاذبون.

هذا هو الأصل في مجيء النبيين والشهداء، فهؤلاء لا يحاسبون لأن الله قد كتب لهم أن يدخلوا الجنة بغير حساب، بل إنهم صلوات الله وسلامه عليهم، يشفعون لغيرهم يوم القيامة.

فرسول الله ﷺ يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(١)، لذلك فإن كل من ينكر شفاععة الرسل نقول له اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَا تَقْبَلُ لَهُمْ شَفَاعَةً شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعَثَ اللَّهُ لَمِنَ أَنْبِيَائِهِ ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَفَضَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [النجم: ٢٦]. واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة: ﴿ إِلَّا ﴾ معناها أن هناك استثناء، فلا حرف استثناء، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أنه يستثني من خلقه من يشاء ليكونوا شفعاء، فإن أجدر الناس بهذا الاستثناء هم أنبياء الله ورسله، الذين اختارهم ليلغوا منهجه إلى البشر.

ورسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والمرسل إلى الناس كافة، جعل

(١) رواه أبو داود [٤٧٣٩] والترمذي [٢٤٣٥]، وأحمد في المسند [٣/٣١٢]، والبيهقي في الكبرى [٨/١٧/١٥٦١٦]، والحاكم في المستدرک [١/٦٩] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٦٥]. ورواه ابن ماجه [٤٣١٠]، وابن حبان في صحيحه [٦٤٦٧] عن جابر رضي الله تعالى عنه.

اللَّهُ تبارك وتعالى له الشفاعة العظمى، لأنه لم يرسل إلى قوم بعينهم كباقي الرسل، وإنما أرسل إلى العالمين، ولذلك فإن أمته هي أكثر الأمم عدداً، وشفاعته هي أكثر الشفاعات اتساعاً، إذن.. فالشفاعة مثبتة لرسول الله ﷺ بنص القرآن الكريم^(١).



(١) راجع فصل الشفاعة من هذا الكتاب.

تمنى الكافر والعاصي أن تسوي بهما الأرض

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢).

ساعة ترى ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ وتجد فيها هذا التنوين فأعلم أنه عوض عن شيء محذوف؛ والمحذوف هنا أكثر من جملة، ويصبح المعنى: يوم إذ نجىء من كل أمة بشهيد، وتكون أنت عليهم شهيداً، في هذا اليوم: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة، كانوا يحسبون أن كلام الرسول ﷺ مجرد كلام ينتهي، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم؟ ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾، وما معنى: ﴿تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾؟ كما نقول: سأسوي بفلان الأرض؛ أي تدوسه دوسة بحيث يكون في مستوى الأرض.

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فكيف لا يكتُمون الله حديثاً؟ وهو قد قال في آية أخرى: ﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكْذِبُوا﴾ (المؤمنون: ١٠٨).

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر له مراحل: فمرة يتكلمون، ويكذبون، فهم يكذبون عندما يقولون: ﴿وَاللَّهُ زَيَّنَّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣). وسيقولون عن الأصنام التي عبدوها: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣).

إذن... فقولهم: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ دليل على أن الحديث مندفع، ولا يقدر صاحبه أن يكتمه، فالكتم: أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه، والواحد منهم في الآخرة لا يقدر أن يكتم حديثاً؛ لأن ذاتية النطق ليست في أداة النطق كما كان الأمر في الدنيا فقط، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم، وبآلسنتهم وبجوارحهم؛ لأن النطق ليس باللسان فقط، فاللسان سيشهد، والجلود تشهد، واليدان تشهدان، بل كل الجوارح تشهد.

إذن... فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد، لماذا؟ لأن هناك ما نسميه:

«ولاية الاقتدار»، ومعناها أن هناك قادراً، وهناك مقدور عليه، ولكي نقرب الصورة؛ عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد، وبعد ذلك قامت الكتيبة في مهمة، والقانون العام في هذه المهمة أن يجعل لهذا القائد قادية الأوامر، وعلى الجنود طاعته؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب في فصل معركة ما، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير، فيكون للجنود معه كلام آخر، إنهم يقدرون أن يقولوا: هو الذي قال لنا ونفذنا أوامره.

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى. فحينما خلق - سبحانه - الإنسان خلق جوارحه منفصلة لإرادته، وإرادته مكيفة حسب اختياره. فإرادة الطائع إطاعة أمر، واجتناب نهى، وإرادة العاصي على العكس؛ لا يطيع الأمر، ولا يتجنب المنهي عنه، فواحد أراد أن يشرب الخمر، فرجله مشت، ولسانه نطق للرجل الذي يعطيه الكأس، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب، والجوارح التي تقوم بهذه العملية هي خاضعة لقادية إرادته، فقد خلقها ربنا هكذا، وبعد ذلك، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر في الآخرة، تقول له: يا رب هو عمل بي كذا وكذا، لماذا؟ لأن قادية الإرادة امتنعت في ذلك اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لَيْسَ الْمُلْكُ لِلَّذِينَ هُمْ يُوَفُّوْنَ الْوَعْدَ﴾ (إغافر: ١٦).

وليس لي ولا لأحد إرادة في الآخرة، وما دام ليس لي إرادة، فاليد تتكلم وتعرف: عمل بي كذا وكذا، وكنت يا رب مقهورة لقادية إرادته التي أعطيتها له، فيمجرد ما يريد فأنا أنفذ، عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع، ويعترف اللسان بسببه لفلان، أو مدحه لآخر.

إذن... فكل هذه ولاية القادية من الإرادة على المقدورات من الجوارح. لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادية للإرادة؛ فلا يوجد أحد له إرادة، فكان الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة؛ لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا إِيَّاكُمْ لَمَّ شَيْدُهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَمَّا قَالُوا أَنُطَقُ بِأَنَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (فصلت: ٢١).

﴿يَوْمَ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا لَمَّا أَتَيْنَاهُمْ﴾ (النساء: ٤٢).

لأن الكافر سيقول: ﴿يَلْبَسُنِي كُفْرًا﴾ (النبا: ٤٠).

شهادة أعضاء الإنسان عليه

علمنا أن هناك حياة لكل ما خلق الله في هذا الكون، حياة قد نجهلها، وحياة قد نعرف منها شيئاً، ونجهل أشياء، وحياة قد نعرفها كلها؛ ولكن لكل ما خلق الله في هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض.

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة، فلا نستغرب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا إِلَهُكُمُ الَّذِي شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ... ﴿٢٢﴾﴾.

لأن الجلود هي من خلق الله سبحانه وتعالى، ولها لغة تسبح بها، ولكن لا نفهمها ولا نسمعها، وكذلك العين والأذن والأنف، وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة لله طائعة له، ولكنها مسخرة لنا بأمر الله تعالى، فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكيناً، أو رجلاً أعمى، حتى وإن أردت أن أبطش بها ضعيفاً فلا تعصيني.

واللسان في الحياة الدنيا مسخر لي، فاستطيع أن أقول به الحق، وأن أقول به الكذب، وأنطق بكلمة الإيمان أو كلمة الكفر، وهو في كل هذا يطيعني.

وكذلك كل أعضاء الجسد، فإذا جاءت الآخرة، انتهى هذا التسخير وزال، وأصبح اللسان الذي كان مسخراً لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله، شاهداً عليّ، وكذلك العين، والجلد... الخ.

وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد بالحق^(١) بما فعلت في الدنيا من

(١) قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ آيَاتِنَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ لَظْفَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. آيس: ١٦٥.

وقال: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ لَهُمُ أَصْوَابَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤).

وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا إِلَهُكُمُ الَّذِي شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ الآية.

وروي من حديث معاوية بن حيدة القرشي أن النبي ﷺ قال: «تأتون يوم القيامة وعلى =

معاصي، ويعلمنا الله تعالى لغتها، فنسمع لشهادتها علينا.

«أفوايكم القدم، أول ما يعرب عن أحدكم فخذ^(١)، وفي رواية: فخذ وكفه^(٢). وأخرج مسلم [١٧/٢٩٦٩] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب، ألم تجزني من الظلم؟ قال: يقول بلى، قال: فيقول فإني لا أجز على نفسي إلا شاهداً مني. قال: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهدوا، قال فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي، قال: فتتطلق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول بُعْداً لَكُنْ وسُخْفاً، فعنك كنت أناضل».

وروى الترمذي [٢٤٢٨] عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام، والحراث، وتركك ترأساً وتربع، فكنت نظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول لا. فيقول اليوم أنساك كما نسيتي». وقال هذا حديث صحيح غريب.

وأخرج البخاري [٣٣٣٤]، ومسلم [٥١/٢٨٠٥] عن أنس ابن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً لو كان لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك».

قال القرطبي: قوله عليه السلام: «أول ما يتكلم من الإنسان فخذ» يحتمل وجهين: **أحدهما**: أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتاب في قوله: ﴿هَذَا كَيْفًا يَلْقَى فَتَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الحاقة: ٢٩] لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش، ويخلو قلبه عندها من ذكر الله تعالى، فلا يفعل ما يفعل خائفاً مشفقاً، فيجزيه الله بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد.

والوجه الآخر: أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه، ولا يعرف بما ينطق به، بل يجحد، فيختم الله على فيه عند ذلك وتنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا، فتشهد عليه سيئاته، وهذا أظهر الوجهين. يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم، لم شهدتم علينا فتمردوا في الجحود فاستحقوا من الله الفسخ والإخزاء. نعوذ بالله منهما.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَسُوكَ آيَاتِنَا فَتَوَكَّلْ هَذَا﴾ أي: اليوم أتركك في العذاب وكما تركت عبادتي ومعرفتي.

فإن قيل: فهل يلقي الكافر ربه ويسأله؟ قلنا نعم. بدليل ما ذكرنا. وقد قال تعالى: ﴿فَلْيَسْأَلِ الْعَبِيدَ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [الاعراف: ١٦]. في أحد التأويلين. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى

(١) رواه أحمد في المسند [٤٤٦/٤] والنسائي في الكبرى [١٩/٤٣٩/١١٤٣١]. والطبراني في الكبير [١٩/٤٢٦/١٠٣٦].

(٢) رواه أحمد في المسند [٤/٥]، والطبراني في الكبير [١٩/٤٠٧/٩٦٩].

﴿ تَرَىٰ فِيهَا عِصْيَانَهُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِمْ ﴾ (الأنعام: ٣٠). وقال: ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْشُوكَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (هود: ١٨)، وقال: ﴿ وَغِيْرُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا ﴾ (النكف: ٤٨)، الأيسين. وقال: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَنَا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ قَدْ أَتَىٰ عَلَىٰ الْغَافِلِينَ ﴾ (الغاشية).

وقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ صَطَبَكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَابْتَغُوا يَوْمَ الْمُنَادَةِ مِنَّا كُنُوفًا يُفْتَرُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٢، ١٣). والآي في هذا المعنى كثير. فإذا قيل فقد قال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ الْمُخْرَجِينَ بِسَلَامِهِمْ وَقَدْ جَاءَ الْقَوْمُ الْأَقْدَامُ ﴾ وقال عليه السلام: «يخرج عُنُقُ من النار فيقول: وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وكل من جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»^(١).

قلنا: هذا يحتمل أن يكون بعد الوزن والحساب ونظائر الكتب في اليمين والشمال وتعظيم الخلق كما تقدم، ويدل عليه قوله: «وبالمصورين» فإنهم وإن كانوا موحدين، فلا بد لهم من سؤال وحساب، ويعدو يكونون أشد الناس عذاباً. وإن كانوا كافرين مشركين، فيكون ذكرهم تكراراً في الكلام.

على أن نقول: قال بعض العلماء: ذكر الله تعالى الحساب جملة وجاءت الأخبار بذلك، وفي بعضها ما يدل على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، فصار الناس إذن ثلاث فرق: فرقة لا يحاسبون أصلاً، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً، وهما من المؤمنين، وفرقة تحاسب حساباً شديداً، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله، فلا يعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله. فيدخله النار بغير حساب.

وقد ذكر ابن المبارك في رقايقه عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، أن بعد أخذ النار هؤلاء، تشر الصحف، وتوضع الموازين، وتدعى الخلائق للحساب. فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿ لَا يَنْفَعُ عَنْ تَتَابُعِهِمْ إِلَهٌ لَّهُمْ لَنْ يَنْفَعُوا ﴾ (المطففين: ١٥) وقال: ﴿ وَلَا يَنْفَعُ عَنْ تَتَابُعِهِمُ الْمُخْرَجُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَلَا يُصَلِّتُهُمْ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٧٧) وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار. قلنا القيامة مواطن: فمواطن يكون فيه سؤال وكلام، ومواطن لا يكون ذلك فلا تنافس الآي، والأخبار، والله المستعان.

قال عكرمة: القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وقال ابن عباس: لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ والقاطع لهذا قوله تعالى: ﴿ وَرَبِّكَ تَسْتَلْهُمُ أُخْمِينَ ﴾ (١١) عا كانوا يَمْتَلِكُونَ ﴿ (الحجر).

قال أهل التأويل عن لا إله إلا الله: وقد قيل إن الكفار يحاسبون بالكفر بالله الذي كان

(١) وروى أحمد في المسند [٣٣٦/٢] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخرج عُنُقُ من النار يوم القيامة له عيمان ببصر بهما وأفنان يسمع بهما، ولسان ينطق به، فيقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من ادعى مع الله إلهاً آخر، والمصورين».

وقال الأرنؤوط إسناده: صحيح.



= طول العمر دنارهم، وشعارهم، وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها فإنهم يكتنون عليها، ويسألون عنها وعن الرسل وتكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْمَوْتُ سِوَانَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَمِيلِكُمْ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَتَى كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (التكوير). والآي في هذا المعنى كثيرة، ومن تأمل آخرة سورة المؤمنين ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إلى آخرها تبين له الصواب في ذلك. والحمد لله على ذلك.

وذكر ابن المبارك عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن بعد أخذ النار هؤلاء الثلاثة: تنشر الصحف، وتوضع الموازين، ويدعى الخلائق للحساب. فإن قيل: فقد ذكر اللالكائي في سننه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «لا يُحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة» قالوا: ولأن الحساب إنما يراد للشواب والجزاء، ولا حسنات للكافر فيجازي عليها بحسابه، ولأن المحاسب له هو الله تعالى، وقد قال: ﴿وَلَا يُحِصِّيهِمْ اللَّهُ يَوْمَ يُقِيمَتُهُ﴾ (البقرة: ١٧٤).

قلنا: ما روي عن عائشة قد خالفه غيرها في ذلك للآيات والأحاديث الواردة في ذلك وهو الصحيح، ومعنى ولا يكلمهم الله أي: بما يحبونه، قال الطبري وفي التنزيل: ﴿قَالَ أَتَشَاءُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٨) وقد قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُغْرَمُونَ﴾، ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْ وَلَا حَسَبٌ﴾ (الرحمن: ٤٣٩) سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين أي: إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة، أن يقال ما كان دينك، وما كنت تصنع في الدنيا حتى يبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً لكن المؤمنين يكونون ناصري الوجوه، منشرحي الصدور. ويكون المشركون سود الوجوه، زرقاً، مكروبيين. فهم إذا كلفوا شوق المجرمين إلى النار، وتمييزهم في الموقف، كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم، ومن قال هذا فيحتمل أن يقول: إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الأخبار من سؤال الملكين الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه ونبيه، أي إذا كان يوم القيامة لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى تمييز فريق عن هذا لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها، ومن قاله يحتاج بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابٍ آتٍ إِيَّاهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (الحجرات).

أخبر أنه يسألهم عن أعمالهم، وهذه الآية في الكافرين، ومن قال يسألهم عن أصل كفرهم، ثم عن تجريدهم إياه كل وقت باستهزائهم بآيات الله تعالى ورسله فقد سألهم عما كانوا يعملون، وذلك هو المراد.

سؤال الكفار والمشركين

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنعام).
وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَاسْتَجَبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (القصص: ٦٤).

هاتان الآيتان تبيان لنا موقف الذين أشركوا بالله يوم القيامة، بحيث يسألهم الله أين شركاؤكم؟ أحضروا ما أشركتم به، فيتلفسون يميناً ويساراً فلا يجدون شيئاً، فينقسم ردهم إلى قسمين:

قسم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم يكذبون على الله؛ فيقولون: ﴿وَاللَّوْزَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

أي: أنهم يكذبون على أنفسهم ويحسبون أنهم أفلتوا، ولكن الله يعلم أنهم كاذبون، فتشهد عليهم ألسنتهم بأنهم نطقوا بالكذب^(١).

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنعام). يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يَتَذَكَّرُ لَكُمْ أَلَمْ نُجَعِّدْ لَكُمُ الْغُرُفَ﴾ (القصص: ٦٢). وقوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قال ابن عباس: أي: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم - اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله - ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وروي ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: «أنه رجل فقال: يا أبا عباس؛ سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه».

وقال الضحاك عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفيه نظر: فإن هذه الآية مكية، =

أما القسم الآخر: يبحثون عن شركائهم يمينا ويسارا فلا يجدون شيئا ولا

والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا وَيُخَوِّفُونَ كُلًّا بِخِيفَتِهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ عَلَىٰ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْكَفَّيْرَةُ﴾. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَسَتْ لَهُمْ أَفْئُودَةٌ﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٦٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلْيَمْسِكُوا ظُفُوفَكُمْ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَىٰ مِنْ قَبْلِ شَيْءٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْكُفْرِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ (غافر). وقوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَبَرَأَ صَلَوًا لَا يَنْصَرِفَ أَهًا﴾ أي: أغطيعه، لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمما عن السماع النافع. فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الْآرِينِ كَمَثَلِ الْغُرَىٰ الَّذِي يَتَّبِعُهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا ضَعَفًا وَمِثْلَهُ مَثَلُ لَكُمْ عَنِ قَوْمِهِمْ لَا يَقُولُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

وقوله: ﴿وَلَا يَرْوَا صَلَاحًا وَلَا يُؤْمِنُوا أَهًا﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ لَغْوُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣). وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِنَّا جَاءَنَاهُ بِتَحْوِيلَةٍ﴾ أي: يحاجونك وينظرونك في الحق بالباطل، ﴿يَقُولُ الْغَيْرُ كَفَرُوا بِهِ فَلَا تُسْمِعُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومتقول عنهم.

وقوله: ﴿وَعَمَّ يَتَّبِعُونَ عَنَّةً وَيَتَّبِعُونَ عَنَّةً﴾ في معنى: ﴿وَعَمَّ يَتَّبِعُونَ عَنَّةً﴾ قولان: أحدهما: أن الخراف أنهم يتبعون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿وَيَتَّبِعُونَ عَنَّةً﴾ أي: ويتبعون عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا يتبعون ولا يدعون أحداً يتبع. وهذا القول أظهر - والله أعلم - وهذا اختيار ابن جرير.

والقول الثاني: روي عن ابن عباس قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهي الناس عن النبي ﷺ أن يؤذي. وكذا قال عطاء بن دينار وغيره: أنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد ابن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. ﴿وَلَا يُفْلِحُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعِينُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم، وهم لا يشعرون. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُفَعُوا عَلَىٰ الْأَنْفُسِ فَقَالُوا لَبِئْسَ مَا كُنَّا بِنَافٍ وَمَا يَكُونُ مِنَ الْتَوَيْنِ ﴿١٦٨﴾﴾ بل ينادون ما كانوا يخفون من قبل ولو دفعوا لعادوا إليه لئلا عنتهم ولأنهم لا يقولون ﴿١٦٩﴾ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بباقين ﴿١٧٠﴾ ولو ترى إذ دُفَعُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَدَفَعُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

يذكر تعالى حال الكفار إذ دُفَعُوا على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿لَبِئْسَ مَا كُنَّا بِنَافٍ وَمَا يَكُونُ مِنَ الْتَوَيْنِ﴾ ينمون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ يَدْعَاهُمْ مَا كَانُوا يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالنَّكَذِيبِ وَالْمَعَانِدَةِ، وَإِنْ أَنْكَرُوا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ قَبْلَ هَذَا بَيِّسِيرٍ: ﴿فَسَدَّ ذِكْرُكَ فَنُفِّلْنَاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ

يجدون أحداً، فيقولون: ﴿سَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] أي تاهوا منا لا نعرف

= ﴿وَمَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٢) **أَمْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ** ... (٢١) . ويحتمل أنهم ظهروا لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأنبياءهم خلافة، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَفْرَأُ هَذِهِ إِلَّا رَسُولًا سَلَمْتُكَ وَالْأَرْضِ بِمَا رَبَّاهُ﴾ . وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ سُلْطَانًا﴾ . ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار. ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما يكون من بعض أهل المدينة، ومن حولها من الأعراف، وقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يطنون من الكفر والنفاق والشفاق. والله أعلم. وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلَىٰ كَذَّبْنَا عَنْهُمْ مَا تَطْلُبُوا الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَمَحِبَّةً فِي الْإِيمَانِ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَابَهُ جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَالُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ. ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في تمنيتهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان. ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿يَلْبَسْنَا لَهُ وَلَا تَكُذِّبُ بِكَلِمَةٍ رَبَّنَا وَكُنْ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾ . وقالوا إنهم لا حياتنا الدنيا وما نحن بمتعوتين﴾ أي: لعادوا لما نُهُوا عنه، ولقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا لا معاد بعدها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَعَوِّثِينَ﴾ . ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَكْنَا عَنْهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه قال: ﴿الْبَيْسَ خَلَا بِالْحَقِّ﴾؟ أي: البس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ فُتِنُوا بِالْعَذَابِ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم منه ﴿أَبْجَرُ خَلَا أَسْرَ لَا تُصِرُّوكم﴾ .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْزَنُنَا عَلَىٰ مَا فَرَقْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَنزَلْنَاهُمْ عَلَىٰ طُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرْثُونَ﴾ (٢٣) **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يُتَّقُونَ** أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢٤) .

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلفاء الله، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبح الفعل، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْزَنُنَا عَلَىٰ مَا فَرَقْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة، وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْمَلُونَ آثَارَهُمْ عَلَىٰ طُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرْثُونَ﴾ أي: يحملون.

وقال قتادة: يعملون. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهُوَ﴾ أي: إنما غالبيتها كذلك: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

مكانهم ولا يعرفون مكاننا، ولو أن هؤلاء الذين زعموهم آلهة كانت لهم ألوهية أو شيء من الألوهية ما تركوهم في هذا الموقف، وهكذا يريهم الله أعمالهم حشرات عليهم، ويفضحهم أمام خلقه جميعاً، وأمام أنفسهم حتى لا يستطيعوا المجادلة عند الحساب، فلا يستطيع أولئك الذين حزفوا منهج الله أن يقولوا: إن الرسل قد بلغونا المنهج محرفاً وليس لنا ذنب حتى يحاسبنا الله، أو يقول أولئك الذين عبدوا غير الله أن هذه الأشياء التي عبدوها هي التي ادعت الألوهية، وأنهم لا ذنب لهم في ما حدث، بل يظهر أمام الجميع أن هؤلاء الكفار هم الذين حزفوا، وهم الذين اخترعوا هذه الآلهة، وهم الذين وضعوا منهجاً على هواهم، وأن المسألة كلها من أنفسهم، وأنهم مسؤولون عما افترفوه، وأن الحساب بالنسبة لهم عدل.



المواجهة والخصومة

إن المشركين الذين اتخذوا من دون الله تعالى آلهة، سيجشرون يوم القيامة؛ فمنهم من عبده الناس، وهو لا يدري عن عبادتهم شيئاً، فالشمس، والقمر، والنجوم، والأحجار، والأشجار، وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم، ولم يرسلوا رسلاً إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا، أو ليلغوهم بمنهج عبادة.

فالشمس لم ترسل رسلاً مثلاً إلى من عبدوها؛ لتدعي أنها إله، وتطلب منهم أن يسجدوا لها، وتقول لهم: إن منهجي كذا وكذا، وكذلك النجوم والأحجار.

لذلك فإن هؤلاء جميعاً يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم، ويتجهون لله سبحانه وتعالى يسبحونه، بل إن الأحجار التي عبدها الناس يجعلها الله سبحانه وتعالى وقوداً للنار يوم القيامة، وتكون الأحجار سعيدة بذلك، وهي تحرق من عبدها من دون الله وتذيقه العذاب.

كما أن هناك من الرسل من اتخذهم الناس آلهة، فيؤتى بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد، أمام خلق الله كلهم، من الذين اتبعوهم واتخذوهم آلهة؛ وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿أَمَّا قُلْتُ لِلنَّاسِ اعْبُدُونِي وَإِنِّي لَأَنهَضُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦).

بماذا يرد عيسى ابن مريم؟ يقول: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، أي: تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا، فنحن جميعاً عبيدك نسبح بحمذك، ثم يكمل عيسى ابن مريم كلامه: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (آل عمران: ١٨١) **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْءٌ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** (البقرة: ٢٥٥).

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفي، فإن كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علناً، فقد علمه الله سبحانه وتعالى، وإن كان قد قاله سرّاً في نفسه فقد علمه

الله سبحانه وتعالى لأنه يعلم ما تخفي الصدور، ويكون هذا على مشهد من جميع خلق الله منذ عهد آدم إلى يوم القيامة، وهم يشاهدون كل ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة أمام كل خلق الله.

إذن.. الله تعالى قادر على أن يجعل خلقه جميعاً يرون كل ما يحدث دون عناء أو تعب، كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب، وكما يرى الناس اليوم باستخدام قوانين الله التي وضعها سبحانه وتعالى في الكون، ليروا جميعاً في وقت واحد، وفي أماكن متفرقة، حدثاً يقع في العالم في نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية، وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن، فما هي قدرة البشر بعد سنوات، يتقدم فيها العلم، وإذا كان بمقدور البشر صنع ذلك؛ فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى؟

وفي لقطة أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا بِتَمْثَرِ الْجِنِّ إِنَّا أَنْتَكِرُكُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾.

الله سبحانه وتعالى يخاطب شياطين الجن فيقول لهم: لقد أخذتم نصيباً كبيراً من الإنس إلى جهنم فأضللتموهم وأخذتموهم إلى طريق الفساد، والله سبحانه وتعالى حين يخاطب الجن ويقول لهم: ﴿أَسْتَكَرُّكُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فالجن لا يردون، ولكن الذين يتكلمون هم الإنس الذين اتبعوا شياطين الجن؛ وذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ﴾ أي: المتابعون لهم من شياطين الإنس: ﴿رَبَّنَا أَسْمَعْ لِعَبْدِكَ يَتَعَنَّيْ وَتَلْفَنَّا لِحَاكِ الَّذِي أَجَلَتْ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٢٨).

إذن.. فالكلام هنا من الإنس أنفسهم، وأيضاً عن أوليائهم من الجن، إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيراً من الإنس إلى جانبهم، كيف ذلك؟ لأن الله سبحانه وتعالى أعطى الجن في تكوينهم ما لم يعطه للإنسان من ناحية التكوين، فجعل الجن يرون الإنس، بينما الإنس لا يرونهم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِنْكُمْ هُوَ وَقِيلَ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧).

وأعطى الله الجن أيضاً قوة أكثر من الإنس، لماذا؟ لأن الإنسان مخلوق من طين، فإمكانياته محدودة، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة، بينما الجن مخلوق من نار^(١)، يستطيع أن يتغذ من الجدران والسواثر الحديدية، وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة.

(١) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ».

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى، وهو يعرض علينا مشاهد القيامة، أن

طَرَفًا طَرَفًا مَا مَسْتَرِزٌ عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي إِنْ يَسْتَوُونَ يَشْكُرُونَ لَمْ أَكْفُرْ وَمَنْ شَكَرَ فَلَمْ أَزِدْهُ يَشْكُرْ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ وَإِنْ رَأَوْهُ كِرَامًا ۖ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ النمل: ١٧

قال ابن كثير: قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان؛ قالت: قد والله عرفت ما هذا بملكك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرتة شيئاً، وبعثت إليه، إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة آيات بعضها في بعض ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت الجن خلقت على سلطاتها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى أتيتك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قبيل، من ملوك اليمن، تحت يدي كل قبيل ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ يَا أَيُّهَا الْعِجَابِ مَنْ هَذَا قَالَ سُلَيْمَانُ﴾ وهكذا قال عطاء الخرساني والسدي وزهير بن محمد ﴿قَالَ لَا تَأْتُونِ مُسْلِمِينَ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم ﴿قَالَ عَقِبْتَ رَبَّنَا الْجِنَ﴾ قال مجاهد أي: مارد من الجن. قال شعيب الجبائي وكان اسمه كوزن، وكذا قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، وكذا قال أيضاً وهب بن منبه قال أبو صالح: وكان كأنه جبل ﴿أَنَا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْعَمَ بِكَ رَبُّكَ فَتَقَبَّلْكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد: مفعذك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حملته، أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك.

ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحداً قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرضها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ أَنَّى يُعْطَىٰ بَنِي الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس: وهو أصبف كاتب سليمان، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه أصبف بن برخياء، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم، وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه أصبف، وكذا قال أبو صالح والضحاك وفتادة أنه كان من الإنس. زاد قتادة من بني إسرائيل، وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم، وقال فتادة في رواية عنه: كان اسمه بليخاء وقال زهير بن محمد: هو رجل من الإنس يقال له: ذو النور. وزعم عبد الله بن لهيعة أنه الخضر وهو غريب جداً، وقوله: ﴿أَنَا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْعَمَ بِكَ رَبُّكَ فَتَقَبَّلْكَ﴾ أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه: *

يقول لنا: أنه أعطى الجن ميزات كثيرة، وأنهم استخدموا هذه الميزات في التكوين في الشر والإضلال، حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمِعْ بَعْضًا يَتَعَصَّى﴾ [الأنعام: ١٢٨].

ما معنى هذا؟ هل استمتع الجن بالإنس، أم استمتع الإنس بالجن؟ كلاهما استمتع بالآخر، استمتع الجن بالإنس في إعانته على المعاصي، ومادامت شياطين الجن تعين الإنسان على المعصية، فهذا استمتاع لها لأن العداوة بين شياطين الجن والإنس منذ لحظة خلق آدم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّهِمْ لَكْرُءٌ مُّذَوِّعٌ وَأَعَدُّهُ عَذَابًا﴾ [فاطر: ١٦].

فكان إبليس وذريته عليهم لعنة الله مُتعتهم في الحياة أن يقودوا الإنسان

== امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتاك به . فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى .

قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام، وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهنا واحداً لا إله إلا أنت انتني بعرشها، قال: فمشل بين يديه . قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق، وزهير بن محمد وغيرهم . لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس، وكان في اليمن، وسليمان عليه السلام بببيت المقدس، غاب السرير وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحمل بين يديه . قال: وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر، فلما عاين سليمان وملاه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي﴾ أي: هذا من نعم الله عليّ ﴿يَتْلُو﴾ أي: ليختبرني ﴿تَتَكَبَّرُ﴾ أي: تكثر ﴿فَتَنَّا يَكْتُفِرُ الْقَلْبُ﴾ كقوله: ﴿مَنْ حَمَلَ سَلِيمًا فَقَسِيهَ وَنَمَّا لَسْنَا تَعْلَمُهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله: ﴿مَنْ حَمَلَ سَلِيمًا فَلَا تَقْسِيهَ يَتَهَوَّنُ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبًا حَقِيمًا﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم أي: كريم في نفسه وإن لم يعبد أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِنْ تَتُكْبَرُ إِلَهُمْ وَنَمَّا فِي الْأَرْضِ خَيْمَاتُكَ اللَّهُ لَعَنَ خَيْمَتَهُ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

تفسير ابن كثير [٣/٣٥١: ٣٥٢].

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٧٧/٥٥] عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه .

للمعصية والهلاك؛ تماماً كما يكون لك عدو ويدبر لك مكيدة.

إذن، حينما يقود الشيطان الإنسان إلى النار، يكون في قمة السعادة والاستمتاع، لأن هذه هي مهمة الشيطان، وقديماً قال أبوهم إبليس متوعداً بني آدم: ﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْدَمَنَّ بِكُمْ مِرْطَكَ الْمُسْتَعِمِّ﴾.

ولكن ماذا عن استمتاع الإنس بالجن؟ لأن الجن قد زين للإنسان شهواته، وذلك أن شياطين الإنس لا يعيشون بمنهج، ولكنهم يجرون وراء شهواتهم فيأخذون المال الحرام، ويعتدون على حرمان الناس، ويفعلون كل ما تسوله لهم أنفسهم من ظلم وفساد، وفي هذا يكون الإنس الذي اتبع وحي شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها، ففعل ما يريد دون وازع من ضمير أو خلق أو دين.

وهكذا يكون استمتاع الإنس بالجن استمتاعاً عاجلاً لشهوات النفس يعقبه حسرة وندم، ولذلك فإن أولئك الذين يشتغلون بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم، ولكنها تنقلب وبالأعلى عليهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَانُوا يُحَالُونَ مِنَ الْإِنْسِ يَوْمَهُمْ يَحَالُونَ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ١٦).

أي: اتعبوهم، والعجيب أنك تجد أن أولئك الذين يسخرون الجن يأخذون رزقهم من أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئاً، ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل إلا وفي ذريته شذوذ: الأعور، والأعرج، والأكتع؛ لماذا؟ ليلزم كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر، تماماً كالذي يستعين «بالغثوات» ليسيطر على الناس ثم إذا ضعف ينقلب عليه الحي الذي كان يسيطر عليه فيذيقه الهون والعذاب.

إذن، فالإنس يردون: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٢٨).

يعني: عندما كنا على قيد الحياة، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، فاستمتع الجن بأنه قاد الإنسان إلى المعصية، واستمتع الإنسان بالغوص في الملهذات والحرام حتى جاء الأجل، فماذا وجدوا؟ قال لهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾.

أي أن المستمتع الأول والمستمتع الثاني في النار.



اجتماع حول جهنم

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَوْلِكَ لَنُخْشِرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًا ۝٣٨ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَدْعَىٰ إِلَيْهِمْ الرِّحْقَىٰ ۝٣٩﴾ [مريم].

هذا مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، فيه الكفار والشياطين جاثون حول جهنم من الذل ومن الهوان، ثم ينزع الله تعالى من وسط هؤلاء ﴿إِلَيْهِمْ أَشْدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيقًا﴾ وهم: أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دين الله في الأرض، ويسخرون من المؤمنين، ويسفهون منهج الله، وهم في ذلك يستخدمون كل ما لديهم من قوة، وكل ما يملكون من وسائل، فالإنسان حين يكون شديداً يجمع كل قواه لمواجهة الحدث الذي يشغله، وهؤلاء في الدنيا كانوا أشداء على كل من آمن بدين الله، يستخدمون كل ما في مقدورهم من وسائل لمحاربة هذا الدين، والحقيقة أن الكفار هم أغبى خلق الله، فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا لأنفسهم حين يلمزوا المؤمنين والمؤمنات أو يسخروا منهم، تصور لهم عقولهم المريضة أنهم بهذا الفعل يصدون الناس عن دين الله تعالى، ولكن القهار سبحانه يستخدمهم لإثبات صدق رسله بنفس الوسيلة التي تصوروا أنها لهم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٤٠ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٤١ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٤٢﴾ [المطففين].

هذه صورة يعطيها الله سبحانه وتعالى لنا عن موقف الكفار في الدنيا، إنهم يسخرون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم، إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج الله.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فهؤلاء الكفار إنما يشنون منهج الإيمان، ويكونون هم أنفسهم دليلاً على صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله سبحانه وتعالى، لأن الله أخبرنا في كتابه العزيز، بأن هؤلاء سيسخرون من المؤمنين، وسيتغامزون عليهم في الدنيا، ولو أن لديهم فطنة لما اتخذوا هذا السلوك، وحينئذ كنا سنقول: إن القرآن قد قال لنا: إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا في الدنيا، ولم يسخر منا أحد، ولم يتغامز علينا أحد، ولكن كونهم

سخرُوا وتغامزُوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج الله، لأنهم فعلوا ما أنبأنا الله أنهم سيفعلونه، وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج، لأنهم جاؤوا وفعلوا ما أخبرنا الله أنهم سيفعلونه، ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال، بل كلما تحدث.. يقول المؤمن: سبحان الله، لقد أخبرنا الله أنهم سيفعلون وفعلوا.

فصدق الله العظيم، وأصبح هؤلاء المجرمون مثبتين للإيمان وهم يحسبون أنهم سيهدمونه؛ تماماً كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُنْجِذَ الْمُضِلِّينَ عَذَابًا﴾ (الكهف: ٥١).

فإذا جاء المضلون ليحدثونا بنظريات تتعارض مع كلام الله عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان، نقول: لو لم يأت هؤلاء لقلنا أخبرنا الله عن المضلين الذين سيجادلون في الخلق.. فأين هم؟ ولكن كونهم جاؤوا وضللوا الناس بما قالوه؛ من أن الإنسان أصله قرد، وأن السموات والأرض أصلها كذا وكذا، محاولين بذلك التشكيك في منهج الله؛ نقول لهم: لقد ثبت المنهج في قلوبنا، لأن الله قد أخبرنا بما ستفعلونه، وجئتم أنتم تصديقاً لمنهج الله وفعلتموه، فشكراً لكم أنكم كنتم دليلاً على صدق المنهج.



تزييف الحق وتزيين الباطل

يثور جدل في الآخرة بين الذين أشركوا، والذين زينوا لهم الباطل، فيقول الذين أشركوا: ﴿كُنتُمْ تَتْلُونَ آيَاتِ الْبَيِّنَاتِ﴾، أي: تلبسون المعصية ثوب الحلال زيفاً، فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم: ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الصفافات: ٢٩).

أي: أنه لو كان الإيمان في قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان، وما استمعتم إلينا، وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من الله، دون أن تبحثوا عن أسباب أخرى، فيكفي أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنطيع، والذين يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتي بالدودة الشريطية، وبأنه يسبب السرطان وغيره، نقول لهم: لو امتنعنا من أجل هذا المنطق فقط ما كنا مؤمنين، ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأن الله قد حرّمه، ولو كان لحم الخنزير يشفي كل أمراض الدنيا ما أكلنا منه، لأنه ما دام الله تعالى قد حرّمه فنحن نطيع أمر الله سبحانه، ولا ننتظر حتى نعرف الحكمة من التحريم لكي نمتنع.

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة التي يسببها لحم الخنزير، ولكنهم امتنعوا عنه لأن الله حرّمه، وكان كافياً جداً في منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم الله له، دون أن يجهدوا أنفسهم في معرفة العلة من التحريم.

ولو أخذنا كل شيء بمنطق أننا لا بد أن نعرف العلة والسبب، لكان هذا منطقاً دنيوياً، وليس عبادة لله ولا يدخل في منطق الإيمان، والله سبحانه وتعالى يريدنا مؤمنين به إلهاً، ويكفي أن يقول افعل لكي تفعل.

إذن... فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس، ليحلوا ما حرم الله تحت أي ادعاء من الادعاءات، نقول لهم: إن هذا المنطق هو الذي يتخذه بعض مدعي النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين، فهم يحلون ما حرّمه الله تحت ادعاءات مختلفة، وأتباعهم هم أولئك الذين في قلوبهم زيغ، وميل للمعصية، وحب لاتباع الشهوة، لذلك لا تجد مذهباً من هذه المذاهب

المنحرفة إلا وهو قائم على تحليل ما حرمه الله، وبمنطق الإيمان المزيف .
فنجد مثلاً البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب التي تريد أن تحل ما حرم الله، إنما تقوم بذلك بادعاءات زائفة، وتفسيرات منحرفة، ولذلك فهي تحاول أن توهم الناس بأنها أكثر فهماً للقرآن من رسول الله ﷺ الذي نزل عليه هذا القرآن، أو من المسلمين الأوائل، ولا نجد مذهباً من هذه المذاهب يجاهر بالكفر، أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان، بل كلها تدعي زيفاً أن خطيئها هو الإيمان الصحيح، وهذا معنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ ثَلَاثًا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ .
أي: كنتم تزيفون لنا الأحكام، فتحلون الحرام، وتحرمون الحلال، ويفضح الله سبحانه وتعالى أتباع هؤلاء في قوله تعالى: ﴿ يَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴾ (الصفات: ٣٠) .

أي: أن الميل للمعصية والكفر كان في قلوبكم، فلما قالوا لكم ما قالوه لم تتبعوهم بمنطق الإيمان، بل اتبعتموهم لأن كلامهم صادف هوى في نفوسكم، ولولا أنكم طاغون منذ البداية ما استطاع أحد أن يستميلكم تحت أي شكل من الأشكال .



حوار الضعفاء . . والمستكبرين

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى، وهو الحوار الذي سيدور بين الكافرين في النار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾. فالحوار هنا بين الكافرين، جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين، وجزء منهم هم المستكبرون أو السادة الذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّ أَنْتُمْ مَقْعُؤُنَا مِنَّا مِنَّ عَذَابِ اللَّهِ وَتَنَزَّلُ عَلَيْكُمْ فِي الْيَوْمِ الْحَمِيمِ﴾ [إبراهيم: ٢١].

أي: نحن كنا نتبعكم في الدنيا، وكنا نفعل ما تأمرونا به، وننفذ كل ما تطلبونه منا، فهل تستطيعون أن تنجونا اليوم من عذاب النار؟ هذا مظهر من مظاهر العجز البشري يوم القيامة، يقصه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم. لنعرف أن هؤلاء الذين يغوروننا للمعصية أعجز من أن ينفعونا يوم القيامة، أو يخففوا عنا يوماً من عذاب الله.

هؤلاء المستكبرون والسادة مهما كان لهم من سلطان وقهر في الدنيا، فإن ذلك لن يغني عنهم شيئاً في الآخرة، ولن يعطيهم قدرة ولا قوة، وفي ذلك نجد أن بعض الناس يتجرأون على دين الله بالباطل، ويفتون بغير الحق، وإذا ما عارضهم من عنده شيء من العلم، أو بقية من فطرة صحيحة، يقولون له: افعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة لو كان هناك وزر!! ويكون هذا الكلام بالطبع دفعاً للنفس المترددة في ارتكاب المعصية، فإياكم أن تصدقوا هذا الكلام.

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزراً فوق أوزارهم أو معاصيهم، ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك إثم، وعليك عقاب، وستحمل وزرك يوم القيامة، ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك: افعل هذا والإثم على، أو افعل هذا وسأحمل وزرك، بل على مشهد من أهل الموقف جميعاً، لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية، ويكون أولئك الذين ارتكبوها بلا معصية، بل هذا يحمل وزر ما فعله

كاملاً، والآخر يحمل وزره ووزر الذي أضله. هؤلاء عندما يقفون أمام الله للحساب: ﴿يَجْعَلْ بَعْضُهُمْ لِكُفْرٍ أَلْفًا ۝﴾ (سبا: ١٣١).

أي: هذا يلقي اللوم على هذا، وهذا يلقي اللوم على هذا حتى تصبح الفضيحة على رؤوس الأشهاد، وترى المحبة التي كانت بينهم على الشهوات قد ذهبت وانتهت، فهناك نوعان من المحبة في الدنيا: أناس أحبوا بعضهم في الله، والله، يذهبون للمسجد معاً، ويتدارسون العلم معاً، ويقرأون القرآن معاً، وإذا ارتكب أحدهم معصية، نصحه الآخرون ومنعوه.

ومحبة أخرى بين الناس الذين يلتقون على الشهوات، يشجع بعضهم البعض على المعصية في مجالسهم، هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء، ولكن الذين اجتمعوا على الإثم والمعصية إذا وقفوا أمام الله صاروا أعداء، هذا يلقي اللوم على ذلك، وذلك يلقي اللوم على الآخر، فالمحبة التي كانت بينهم على الشهوات انتهت، يتلاومون ويحاول كل منهم أن يلقي باللوم على الآخر؛ ويقول الضعفاء فيهم للذين استكبروا: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبا: ١٣١).

هنا يحاول كبار القوم وسادتهم أن ينفوا عن أنفسهم تهمة أنهم أضلوا المستضعفين فيقولون لهم: لو أن في قلوبكم هداية لاهتديتم.

ولكن ما معنى الهداية؟ الهداية هي أقصر طريق يؤدي إلى الغاية، والله سبحانه وتعالى قد أوجد في الدنيا نوعين من الهداية: هداية دلالة؛ وهذه للناس جميعاً، للمؤمن والكافر، أي أن الله سبحانه وتعالى: يبين للناس؛ كل الناس، طريق الهداية في منهجه، ولذلك أرسل سبحانه الرسل، وأنزل الكتب لئلا يكون للناس على الله حجة، ليس هذا فقط، بل إن الله تعالى يرسل على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها^(١).

والهداية الثانية: وهي الزيادة في الهداية للذين آمنوا بالله تعالى، وصدقوا برسله، فيزيدهم الله هدى ويعينهم عليه؛ ويحببهم في الإيمان، ويثبت قلوبهم عليه مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(٢) (محمد: ١٧).

(١) رواه أبو داود [٤٢٩١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٦٠٦].

(٢) قال العلامة ابن القيم: فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة =

هنا الحديث بين الذين استكبروا والذين استضعفوا عن هداية الدلالة، فهم يقولون لهم: ﴿ أَتَمَرُّ مَسَدَدُنَا عَلَى أَلْفَتِنَا بَعْدَ إِذْ جَاءَنَا ﴾ [سبا: ٣٢].

والتعريف، ترتب عليه هداية التوفيق. وجعل الإيمان في القلب وتحببته إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثراً له، راضياً به، راعياً فيه. وهي هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهاماً له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدانة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن ههنا يعلم اضطراب العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً، مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جعلته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤال الهداية له سؤال الثبوت والدوام.

واللهدية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسوله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط، يكون سيره على ذلك الصراط.

فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطُرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس^(١) في الناس. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، خذو القذة^(٢) بالقذة جزاء وفاقاً: ﴿ مَهْلاً فَخُذُوا قُذًى إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلايب^(٣) التي يجثتي ذلك الصراط، تحطفه وتعوقه عن المرور عليه: فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّعَبِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٦]. فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

بدائع التفسير [١١٦/١: ١١٧].

(١) الكردسة: الوثائق. والرجل المكردس: الذي جمعت يده ورجلاه وألقى إلى موضع.

[لسان العرب ١٩٦/٦]

(٢) القذة: ريشة الطائر والنسر والصفور، بعد تسويتها وإعدادها لتركت في السهم.

[الوسيط ٧٢١].

(٣) جمع كلوب وهو حديدة معطوفة الرأس يُعلق فيها اللحم وترسل في التنور.

شرح النووي على مسلم [٣٠/٢].

أي: أن الله سبحانه وتعالى قد بين لكم طريق الهداية ودلكم عليه، ولو أنكم أردتم أن تسيروا فيه ما كان في استطاعتنا أن نخرجكم عنه أو نمنعكم منه، ذلك لأننا مهما فعلنا فإن قوة الإيمان في قلوبكم، كانت ستجعلكم تصرون على أن تسيروا في طريق الهدى، وكان الله سيعينكم على ذلك.

﴿لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ﴾ [سبا: ٢٢]. أي أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة، وكنتم تريدون المعصية، فما إن أغريناكم حتى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصي بحبكم للشهوات ورغبتكم فيها، وإلا لو كان في قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا.

ويرد الذين استضعفوا عليهم في يأس وحسرة: ﴿بَلْ مَكْرُ الْيَلِي وَالنَّهَارِ﴾.

أي: إنكم كنتم تقعدون لنا ليلاً ونهاراً لتزينوا لنا المعصية، وتزينوا لنا عبادة غير الله، أنتم الذين كنتم ليلاً ونهاراً تأتون إلينا تعدوننا بالمال لنكفر، وتعدوننا بالمكافآت لتركب المعاصي، ويبينون لنا ليلاً ونهاراً طرق الإغواء، ولا تملون أبداً حتى استجبنا لإغوائكم وعصينا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَرْجِعْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ﴾ [سبا: ٣١].



الشیطان خطیباً!

قال الله تبارك وتعالى واصفاً الحالة التي سيكون عليها الشيطان وتابعوه، وكيف سيبتراً الشيطان منهم، وأنه لا حول له ولا قوة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ أَكُنْ مَعَكُمْ مَا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُضِرِّهِمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة في يوم الحساب، فشياطين الجن وشياطين الإنس قالوا: إنهم استمتعوا ببعضهم في الحياة الدنيا، ف قضى الله بأن النار هي مصيرهم ومثواهم، فعندما قضى الأمر، التفت شياطين الإنس إلى إبليس الذي قادهم إلى هذه الهاوية، التفنوا إليه يستنجدون به من النار التي سيقدفون فيها؛ ماذا قال إبليس؟ قال الحقيقة، لأن حياة الخداع قد انتهت، وقد أصبحنا في مرحلة اليقين، لم يعد هناك ظن ولا غيب، فقد كشف الله حجب الغيب للناس، وانتهت مهمة إبليس، فإبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث حين قال لعنة الله تعالى عليه: ﴿فَأَنْطَرُوا إِلَيَّ يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]، أي: يا ربي أعطني مهلة إلى يوم البعث، قبل أن أخلد في العذاب، وذلك حين رد إبليس الحكم على الله تعالى؛ يوم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. وقال: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا خَلْقٌ طِينٌ﴾ [الاسراء: ٦١].

إذن... هو قد رد الأمر على الله. ومن ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيمانياً هاماً بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله، فمن الخير لهم أن يقولوا: إن منهج الله حق، ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج، أما أن نرد الحكم على الله ونقول: إن الربا حلال، وإن قطع يد السارق حرام، نقول لكل من ينهج هذا السلوك: لا ترد الحكم على الله فتكون في صف

(١) راجع ذلك في قصة نبي الله آدم عليه السلام وهي ضمن المجلد الأول من كتاب: «قصص الأنبياء» للشيخ الإمام، وهي درة فريدة في موضوعها.

إبليس مطروداً من رحمة الله، ولكن قل: إن كل ما في منهج الله حق، ولكنني لا أستطيع أن أحمل نفسي على هذا الأمر، أو أن الله يتوب على من فعل كذا أو كذا، فبدلاً من أن تكون كافراً إن رددت الحكم على الله، تكون عاصياً إن أقررت بذنبك، وبخطئك، ويمكن أن تستغفر لمعصيتك فيغفر لك الله، وأن تتوب منها فيتوب الله عليك، أما أن ترد الحكم على الله فهذا كفر.

إذن... فقد انتهت المهلة التي أعطاه الله سبحانه وتعالى لإبليس، وجاء اليوم الذي يحاسب فيه، ولم تعد تفيده عداوته لآدم شيئاً، فلم يعد هو قادراً على غواية الإنسان، ولم يعد الإنسان مخدوعاً فيه، انتهى كل هذا. لأن الحياة أصبحت غير الحياة، ولم يعد الشيطان يستطيع أن يغوي أحداً في يوم البعث، فهي النار والجنة والجزاء والحساب، فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق، لأنه لو كذب فإن كل ما هو حادث يكذبه، ولم يعد الموقف يسمح بالكذب، والشيطان يرى جهنم التي سيلقى فيها ويخلد إلى الأبد، في هذا الموقف الرهيب لا يستطيع الإنسان أن يقول إلا الصدق، تماماً كساعة تنفيذ حكم الإعدام على القاتل، وهو يقاد إلى المشنقة، هل في هذه الحالة هو صالح للكذب؟ إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا بالحق، فما بالك وإبليس يواجه عذاب الله؟

إن قول الشيطان عليه لعنة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. اعتراف منه بأن وعد الله تعالى كان حقاً، ووعد الشيطاني الذي وعد به الإنسان ومناه كان كذباً، فإنه كان يمني الإنسان ويغويه بالكاذب ليرتكب المعاصي، ويزين له العمل السيء.

إذن... الشيطان يعترف أنه ظل يغوي الإنسان حتى يعتقد زيفاً أنه سيفلت من عقاب الله، أو أن العذاب سيكون يسيراً، ثم بعد ذلك يدخل الجنة، وعندما يأتي الإنسان ليتوب، يأتي الشيطان فيقول له: أجل التوبة حتى تتقدم بك السن، ثم بعد ذلك لا يمهل الأجل الإنسان، وكل إنسان لديه امتدادات في الأمل، بمعنى: أنه لو لم يحقق ذلك اليوم، فإنه سيحققه غداً، وهناك آمال كثيرة في حياة الناس قد لا تتحقق أبداً، ولكننا نعيش على أمل أنها ستحقق، ومهمة الشيطان أن يعطي للإنسان الأمل الكاذب، الأمل الذي لن يتحقق، فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلاً، ويمنيه بأنه سيفعل كذا، وسيحقق كذا بالمال الحرام، وقد يكون هذا المال الحرام نكبة عليه وعلى أولاده فيصيبه

بالكوارث والأمراض، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت.

ثم يقول الشيطان لأولياءه: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٢٢].

والسلطان هو: إما قوة القهر، أي: أن الشيطان ليس له قوة القهر ليفهر الإنسان على المعصية، أو إما أن يكون قوة مادية تفهر، بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض، فأقيدته بالسلاسل، وأحمله إلى هناك، أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعني، فأحضر بعض أعواني بالعصى والسياط، فيلهبون ظهره حتى يفعل ما أريد.

أو يكون السلطان هو سلطان الحجة، كأن تأتي للإنسان وتظل تتحدث معه حتى تقنعه بأن يقوم بالعمل الذي تريده، فيقتنع اقتناعاً يجعله يفعل ما تريده منه، ولكن باختياره.

كلاهما سلطان، سواء اتبعت القهر، أو اتبعت الحجة والإقناع، والشيطان لا يستطيع أن يقهر إنساناً على معصية بالقوة والقهر، وليس للشيطان حجة ليقنع بها الإنسان، ليجعله يرتكب المعصية بحجة الإقناع، ولكن لا بد أن يوجد في داخل النفس أولاً هوى ورغبة للمعصية، فيأتي دور الشيطان فيزين له المعصية، كأن يكون الإنسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال، حينئذ يأتي الشيطان ليزيد له المال الحرام؛ ويقول: إذا سرقت هذا المال فستحصل على عيشة الرفاهية التي تتمناها، ويظل يوسوس له بذلك حتى يسرق، أو يزين له جمال امرأة مستهترّة، فيقع فيما حرمه الله تعالى عليه.

إذن.. الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بمشهد الحوار الذي سيدور بين إبليس وشياطين الإنس، وأن الشيطان سيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ نَقُولَ﴾ **فَلَتَجِدَنَّ رِيًّا**.

أي: أنه لم يكن الشيطان يملك سلطان القهر، ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية، ولكن شهواتهم التي في داخلهم هي التي قادتهم لهذا، لذا عندما يتجه شياطين الإنس إلى إبليس باللوم، يقول: ﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْءَا أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: أنكم لو لم يكن عندكم حب للشهوات في داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم، فلا توجهوا لي اللوم، بل وجهوه إلى أنفسكم.

ثم يقول: ﴿مَا أَنَا بِمُفْرِجِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُغْرِقِكُمْ﴾. والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الإنسان على مواجهتها بمفرده، بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها، فإذا شب حريق في البيت مثلاً، وكان الحريق صغيراً يمكنني

أن أسيطر عليه، حينئذ لا أصرخ طالباً النجدة، وإنما أقوم بإطفاء الحريق بإمكانياتي مادمت واثقاً أنني أستطيع، ولكن إذا كان الحريق كبيراً لا أستطيع بقدراتي أن أتغلب عليه، فإنني في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة، لأنني أواجه حدثاً أقوى من قدراتي، فأنا محتاج إلى عون الآخرين، وإذا هاجمني لص مثلاً في الطريق؛ فإذا كنت قوياً فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده، ولكن إذا كان اللص أقوى مني، فأنا في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة حتى يعينني الناس عليه.

ونلاحظ في حياتنا أنه حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان:

نوع لا يجد في نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل، فلا يذهب إلى الصراخ لينجده، كأن يهاجمني لص قوي وأصرخ طالباً النجدة، ويكون الذي يمر شيخ كبير لا يكاد يقوى على السير، حينئذ فإنه لا يجيب على صرختي، لأنه لا يستطيع أن يقدم العون، فهو شيخ ضعيف كبير السن.

ونوع آخر يجد في نفسه القدرة على الثَّصرة، فيأتي إلى ويساعدني في أن أتغلب على ما ألتُم بي، حينئذ يُقال: أصرخه فلان، أي أزال سبب صراخه. والشیطان في يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحداً، أي: لا يستطيع أن ينقذ أحداً من النار، ولا يستطيع أحد أن يصرخه، أي: ينجيه من العذاب الذي ينتظره، لذلك يقول الشيطان للعاصين في ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة: لا أنا أستطيع أن أنجيكم من العذاب، ولا أنتم تستطيعون أن تنجونني من الخلود في النار، فكلانا عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

ليس هذا فقط بل إنه لعنة الله عليه يعترف ويقول: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا

لَرَكْتُ مِنْ قَبْلُ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

أي: إني كافر بما دعوتكم إليه، لأنني أول من يعلم أن ما دعوتكم إليه زيف وكذب، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، واتبعتم الزيف الذي قدمته لكم.



تطابير الكتب

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بَيَّعَ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَمِيرًا﴾ (٨) وَيَقُولُ إِنَّ أَهْلِي مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ (١١) وَيَصِلُ سَمِيرًا (١٢) ﴿[الانشقاق].

إن الحساب اليسير الذي سيحاسب به بعض المؤمنين لا يعتبر حساباً ولكنه عرض لرحمة الله، وتوضيح لتجليات لطف الله تعالى على المؤمنين، كأن يقال للمؤمن أنت فعلت كذا وكذا، وقد غفر لك الله، ولكن الحساب الحقيقي الذي يحدث فيه نقاش ومحاسبة، إنما معناه أن صاحبه مستحق للعقوبة، أما الحساب الذي ليس فيه مناقشة فإنه يكون يسيراً ويكون كله ثواباً ورحمة؛ كأن نقول لإنسان عزيز عليك أنت فعلت كذا وكذا، من باب العتاب الذي ليس فيه غضب ولا تقريع بل فيه تسامح.

أما من حُفَّت عليه العقوبة من المؤمنين العاصين أو غير المؤمنين؛ فإن حسابه يكون رهيباً، والحساب يشتمل على ثلاثة أجزاء رئيسية، جزء مدون فيه العمل الصالح للعبد، وجزء مدون فيه المعاصي التي ارتكبتها العبد، وجزء مدون فيه نعم الله عليه، لأن النعمة تدخل في الحساب، ونعم الله عادة تجب كل العمل الصالح؛ فإذا حوسب العبد بعمله الصالح فقط دون رحمة الله وفضله، فإن نعمة واحدة من النعم التي أنعمها الله عليه ترجع بكل العمل الصالح الذي قدمه في الدنيا^(١).

(١) أخرج البخاري [٤٦٨٥]، ومسلم [٢٧٦٨/٥٢] عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي الله تعالى عنهما كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فيقرره بذنوبه، فيقول هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف. قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم. فيعطي صحيفة حسنته، وأما الكفار والمنافقون، فينادي بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله».

وفي رواية البخاري، قال في آخره: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ١٨).



= ورواه ابن ماجه [١٨٣]، وابن حبان في صحيحه [٧٣٥٥].

وروي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة خلا الله عز وجل بعبيه، المؤمن، يوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً، ثم يغفر الله له لا يُطْلَعُ على ذلك ملكٌ مغرب، ولا نبي مرسل، وستر عليه من ذنوبه ما يكرهه أن يقف عليها، ثم يقول لسبائته كوني حسناً»^(١٦).

وخرج أبو الفاسم إسحاق بن إبراهيم الخثلي في كتاب الديباج له، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: يدني الله العيد منه يوم القيامة ويضع عليه كتفه، يستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في ذلك السر، فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك. قال: فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه، ويمر بالسنة فيسود لها وجهه.

قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدي؟

قال: فيقول: نعم يا رب أعرف.

قال: فيقول: إني أعرف بها منك، قد غفرتها لك.

قال: فلا تزال حسنة تقبل فيسجد، وسنة تغفر فيسجد، فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك، حتى يتأدي الخلائق بعضها بعضاً؛ طوبى لهذا العيد الذي لم بعض قط ولا يدرون ما قد لفي فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه^(١٧).

(١٦) ذكره القرطبي في التذكرة [٢٩٩/١].

(١٧) ذكره عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد [ص: ٢١٥].

ذرية الأنبياء والشهداء والصالحين

معلوم أن الأنبياء والشهداء لا حساب عليهم، فالأنبياء معصومون من الذنوب، والشهداء غُفرت لهم ذنوبهم ساعة استشهادهم، ولذلك لا يحاسب الأنبياء والشهداء، وعلى ذلك يكون سؤال الأنبياء في الآخرة هو عن تبليغ أممهم بالمنهج، وهل بلغوا رسالة الله أم لم يبلغوها؟ وينتهي سؤالهم عند هذا الحد، أما المؤمنون فإنهم يحاسبون حساباً يسيراً، ولا يكون الحساب أكثر من عرض لرحمة الله عليهم، يقال لهم لقد فعلتم كذا وكذا، ولكن الله غفر لكم، ولذلك تكون المناقشة معهم عرضاً لكرم الله وفضله عليهم، بل إن الله سبحانه يضيف لهم من فضله فيلحق بهم ذرياتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ صَلَاتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

إذن... في ساعة الحساب يعطي المؤمنون من فضل الله الكثير، فإن الله بفضله يلحق هذه الذرية بأبائهم وأمهاتهم، شريطة أن تكون تلك الذرية مؤمنة، فالذرية لو لم تؤمن انفصلت عن العمل الصالح لأبائهم، كما حدث بالنسبة لابن نوح عليه السلام، فقد كفر ابن نوح ورفض الإيمان، فأغرقه الطوفان مع الكافرين، وعندما اتجه نوح إلى السماء طالباً نجاة ابنه، وأن يلحق، به قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَنْسُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وهكذا انفصل الابن عن الأب النبي لأنه عمل غير صالح، فالذرية المؤمنة يوم القيامة تلحق بأبائهم الصالحين، فهذه ليست كرامة للذرية، ولكنها كرامة للأباء الذين ألحقوا بهم، وما دام الابن يشترك في الإيمان مع الأب فإنه يلحق بالأب الصالح، ولو قصر به عمله عن رتبة أبيه، وذلك لا يؤثر في منزلة الأب الصالح ولا ينقص من عمله شيئاً، فإن الله تعالى لا يقسم عمل الأب الصالح على جزئين: جزء له، وجزء لابنه، بل يبقى عمل الأب الصالح تاماً وكاملاً، ومنزلته كما هي، ويلحق به الابن إكراماً له ولحسن إيمانه.



المسلم العاصي

إن المسلم العاصي هو الذي زادت سيئاته عن حسناته، وهذا تنفعه شفاعة الشافعين بعد الله تعالى، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «شفّاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(١)، وعلينا أن نعلم أن المشفوع له لا بد وأن تكون له خصلة خير، خصلة الخير هذه هي التي توجب له شفاعة الشافعين^(٢)، لذلك يروي: «لا تحقرن طاعة ما ولا تحقرن معصية ما فالله أخفى

(١) رواه أحمد في المسند [٢١٣/٣]، والترمذي [٢٤٣٥]، وأبو داود [٤٧٣٩]، وابن ماجه [٤٣١٠] وغيرهم عن أنس رضي الله تعالى عنه. وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٦٥].

(٢) روى ابن ماجه [٣٦٨٥] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصَفُّ الناس يوم القيامة صفوفًا» وقال ابن نمير: «أهل الجنة» «يمر الرجل من أهل النار على الرجل من أهل الجنة، فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة؟ قال: فيشفع له، ويمر الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتكَ طهورًا؟ فيشفع له» قال ابن نمير: «ويقول: يا فلان أما تذكر يوم بعثني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك؟ فيشفع له». وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه [٨٠٥].

وروى الطبراني في الكبير [١٠٤٦٢/٢٠١/١٠] عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّكُمْ أَجُورُكُمْ وَيَزِيدُكُمْ مِنْ فَضِيلَةٍ﴾ (إطّار: ٣٠)، قال: «أجورهم: يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا». وذكر أبو جعفر الطحاوي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الجنة صفوفًا وأهل النار صفوفًا، فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة، فيقول: يا فلان تذكر يوم اصطنعتُ معروفًا إليك؟ فيقول اللهم إن هذا اصطنع إلني في الدنيا معروفًا. قال: فيقال له خذ بيده وأدخله الجنة برحمة الله عز وجل.

وقال أنس رضي الله عنه أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

وذكر القرطبي قال: قال أبو عبد الله محمد بن ميسرة، ورأيت في الكتاب الذي يقال إنه الزبور: «إني أدعو عبادي الزاهدين يوم القيامة فأقول لهم عبادي إني لم أزو عنكم الدنيا لهوانكم علي، ولكن أردت أن نستوفوا نصيبكم موفوراً اليوم، فتخللوا الصفوف، فمن

ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، وغضبه في معصيته، وأسراره في خلقه^(١).
أي أن الإنسان لا يجب أن يحقر طاعة ما، فقد تكون هذه الطاعة البسيطة التي لا يلقي إليها بالاً، ولا يهتم بها، هي السبب في دخوله الجنة، لذلك إذا كانت هناك طاعة متاحة لك، ولو كانت بسيطة، فسارع في فعلها، لأنها قد تكون هي التي ستأتي لك بالرضا، وقد أعطانا رسول الله ﷺ مثلاً لذلك في قصة المرأة التي سقت كلباً في يوم حر شديد، فقد وجدت بئراً ونزلت وشربت منه، وعندما صعدت وجدت كلباً يلهث من الحر والعطش، فنزلت إلى البئر ومالت حذاءها

= أحببتموه في الدنيا أو قضى لكم حاجة أو ردّ عنكم غيبة أو أطعمكم لقمة ابتغاء وجهي وطلب مرضاتي؟ فخذوا بيده وأدخلوه الجنة».

وذكر أبو حامد في آخر كتاب الإحياء، قال أنس رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجلٌ من أهل النار، ويقول يا فلان هل تعرفني؟ فيقول لا والله ما أعرفك؟ من أنت؟ فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا يوماً فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك. قال قد عرفت. قال: فاشفع لي بها عند ربك، فيسأل الله تعالى ويقول: إني أشرفت على أهل النار، فناداني رجلٌ من أهلها فقال: هل تعرفني؟ فقلت: لا. من أنت؟ قال: أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي بها فشفعني. فيشفعه الله تعالى فيؤمر به فيخرج من النار». والله تعالى أعلم.

التذكرة [٤٦/٢] [٤٢٤٦].

(١) ذكر البخاري في كتاب الرفاق [٨١] باب ما ينتقي من محقرات الذنوب [٣٢] حديث [٦٤٩٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لننعدّها على عهد النبي ﷺ الموبقات» قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات.

قال ابن حجر في الفتح: «قوله: باب ما ينتقي من محقرات الذنوب» التعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب؛ كمثل قوم نزلوا بطن وإدفاء جاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا بها خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه».

فتح الباري [١٣/١٢٨].

وقال: أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيشق بها، وينسى المحقرات، فيلقى الله وقد أحاط به، وإن الرجل ليعمل السيئة، فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً.

وحديث سهل رواه الطبراني في الصغير [٢/١٢٩/٩٠٤]، والكبير [٦/١٦٥/٥٨٧٢] وينحوه أحمد في المسند [١/٤٠٢]، والبيهقي في الكبرى [١٠/١٨٧/٢٠٥٥١] عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده: صحيح.

ماء ثم صعدت وسقت الكلب حتى ارتوى فأدخلها الله الجنة بهذا العمل^(١).
 إذن . . مطلوب منا ألا نحقر أي طاعة ولا نستصغر أو نستهيئ بأي معصية،
 فقد تكون هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فلا يحقر إنسان معصية مهما كانت
 بسيطة، فقد تؤدي به هذه المعصية إلى النار، كما بين لنا الرسول الكريم ﷺ في
 قوله: « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من
 خشاش الأرض^(٢) »، ولا يصح مطلقاً تحقير عبد من عباد الله بسبب مظهره، أو
 بساطة مركزه الدنيوي، لأنك لا تعرف ما السر الذي أخفاه الله فيه، ولا المنزل
 التي لهذا العبد عند ربه، فقد يكون مستجاب الدعوة، فيقبل الله دعوته فيك.
 واعلموا أن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم^(٣).



(١) أخرجه البخاري [٣٣٢١]، ومسلم [١٥٥/٢٢٤٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه
 قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركبة قد كاد يفتله العطش. إذ رآته بغيا من
 بغايا بني إسرائيل فتزعت موقها فاستقت له به، فسفته إياها فغفر لها به».

(٢) أخرجه البخاري [٣٣١٨] واللفظ له، ومسلم [١٥١/٢٢٤٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى
 عنهما.

(٣) أخرجه مسلم [٣٣/٢٥٦٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
 «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».